الحائز على جائزة ابن بطوطة لأدب اليوميات 2017 - 2018

يوميات عربية

كمال الرياحي

واحد ـ صفر للقتيل

مكتبة نوميديا

حقوق النسخ والتأليف © 2018، **منشورات المتوسط** - إيطاليا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهَّة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Waled - Sefer Le-lqatil *by* "Kamel Riahi"
Copyright © 2018 by **Almutawassit Books**.

المؤلف: كمال رياحي / عنوان الكتاب: واحد - صفر للقتيل
الطبعة الأولى: ٢٠١٨.
لوحة الغلاف: دايون كيم - كوريا الجنوبية / تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-85771-45-1

سلسلة يشرف عليها **المركز العربي للأدب الجغرافي**
تصدر بالتعاون بين:

دار السويدي للنشر والتوزيع
أبو ظبي، ص.ب: 44480/ الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 0097126447474/ فاكس: 0097126449797 / alrihla@gmail.com

منشورات المتوسط
ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

جائزة ابن بطوطة لأدب اليوميات 2017 - 2018

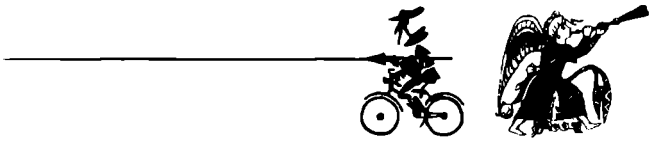

يوميات عربية

كمال رياحي

واحد - صفر للقتيل

"أنا ظلُّ نفسي ذاتها، أبحثُ عن الظِّلِّ.

أحيانًا أتوقّف عند حافّة نفسي، وأتساءل ما إذا كنتُ مجنونًا، أو أنني سرٌّ مُوغِلٌ في السِّرِّيَّة".

فرناندو بيسوا

الجحيم الحميم

"إحدى مهامّ الأدب العظيم: إيقاظ الرجل الذي يسير في اتّجاه سقالة الإعدام". باغتتْني هذه الجملة لساباتو مباشرة بعدما أغلقتُ يوميّات الروائي كمال الرياحي. فجملة كهذه، على قسوتها المباغتة، كافية وحدها لتوصيف هذه اليوميّات. وأتساءل الآن: هل هناك روائي عربي يملك جرأة كمال لكتابة يوميّاته بهذه الشفافية المُزعِجَة كلّها؟

إنّ كتابة يوميّات بهذه الجرأة كلّها، وفي سياق مجتمعات مُراقَبة أخلاقيًا، هي بطريقة ما السير في اتّجاه سقالة الإعدام، فالكتابة هي بسالة الذات.

نحن ننتمي إلى ثقافة تعاني من رُهاب الحقيقة، فيكفي الاطّلاع على سِيَر كتّابنا ويوميّاتهم – على قلّتها طبعًا، لنكتشف أنّ الكاتب العربي لم يتخلّص من أسطورة الكاتب الرسولي، صاحب الرسالة العظيمة.

يوميّات كمال هي ضدّ الصورة النمطية عن السيرة المبجّلة للمثقّف، إنه ركوب المناطق التي يرهبها الكاتب العربي. الكتابة عن المبتذل، عن القذارة، عن العلاقات العابرة، عن الجنس، عن عزلة الكائن، عن المنفى، عن الموت، عن الجثث التي تسكن المخيّلة والأمكنة، عن الآخر، عن أوهام الوطن، عن الواقع المتآكل.

كيف يمكن الكتابة عن هشاشة الكائن؟ إنها يوميّات الجسد أيضًا،

لقد تأمّل كمال وجهه الذي تحوّل إلى مساحة للّايقين، فأن تكتب عن وجهك هو أن تراه في صورة مهرّج.

ملامح المهرّج هي التي تختزل تناقضات الإنسان كلّها، إنّها الهشاشة بوجهها الكامل، السخرية اللاذعة. هل وجه المهرّج هو طريقة للسخرية من العالم؟ أم أنه القناع البهيج الذي يخفي مؤقّتًا كآبة الوجه الطبيعي؟

كتابة اليوميات هي النظر إلى العالم من مسافة بعيدة حتّى تكونَ موضوعيًا، أيضًا من الانغماس في العالم لا يساعد الكاتب في تشكيل صورة واضحة عنه، لذا عليه في كلّ مرّة يرغب في الكتابة عنه، أن يتّخذ مسافة ما. لكن، ألا يتعارض هذا مع طبيعة اليوميّات، فهي الكتابة الآنية لأحداث اليوم؟

كانت هشاشة كمال من إحدى مصادر الإلهام التي ألهمتْه بكتابة يوميّاته، وقد عانى الأمرّين لسنين، لقد اكتشف من خلال يوميّاتها أصل الكتابة.

أمّا على الصعيد الشخصي، فكتابة اليوميّات هي التعبير عن إيمانه بأنّه عاش تجربة غريبة، تستحقّ أن تتحوّل إلى نصّ مكتوب. كان ينظر إلى أثرها المستقبلي. أن تقرأ يوميّاتكَ يعني أن تكتشف نفسكَ ككائن آخر مختلف عنك، فتلاحُق وقائع يوميّاته كأحداث غريبة. وفي تصوير رشيق، قال كمال إنّ كتابة اليوميّات هي أشبه بالوقوف على سلّم هشّ، سيتحرّك يوما، ليُلقي بالكاتب في حياة الآخرين.

هل يمكن ابتكار يوميّاتنا؟ هل اليوميّات بريئة من الأكاذيب؟ يقول كمال: الكذب أساس كلّ شيء في هذا العالم. الكذب هو بناء الحياة على نحو استعاري. "كلّنا نكذب ونحن نتحدّث عن أنفسنا".

كان كمال واعيًا بورطة الكتابة عن تجربته الجزائرية، منذ اللحظة التي قرّر فيها تدوين تلك اليوميّات، يومًا بيوم، كنوع من الشهادة القاسية عن تجربة كانت محفوفة بالكثير من التهديد. ماذا كان ينتظر من بلد، ام يُشفَ من جراحه التاريخية؟

تُقدِّم لنا هذه اليوميّات نظرة كمال للجزائر، وللجزائريّيْن. كيف نحن في نظر التونسي؟ في نظر المغربي؟ في نظر الليبي؟ قليلة هي هذه الأسئلة التي نكاد لا نطرحها إلاّ إذا تعلّق الأمر بصورتنا عند الآخر الغربي أو المشرقي.

فالجزائري في نظر الرياحي كائن حزين، بل هو كائن بائس، وبسبب هذا البؤس الجوهري فيه يلوذ إلى التنكيت والسخرية من كلّ شيء. الجزائري يضحك من كلّ شيء، وإذا لم يجد ما يُضحِكُه يضحكُ من نفسه.

لقد بدا الأفق الجزائري رماديًا، أفقًا بلا أمل، وبلا مستقبل. لهذا حين لجأ إلى الاستعارة، شبّه الجزائر بامرأة أحرقت نفسها، فأصبحتْ بلا وجه.

نظر كمال إلى الجزائر من زوايا عديدة: من مآسي المثقّفين الجزائريّيْن الذين قتلهم الإرهاب الأعمى في العشرية السوداء، إلى نظرته لترسّبات العنف في المجتمع، فقد تصادف تواجده في الجزائر نشوب الحرب الكروية التي اشتعلت بين الجزائر ومصر.

تذكّر بختي بن عودة، وهو المثقّف الجزائري الذي تأثّر بكتاباته المعاصرة التي كان ينشرها في مجلّة كتابات معاصرة، وقد تمنّى اللقاء

به، لولا أنّ الإرهاب قد سبق إليه. الذاكرة الدموية للمثقّفين الجزائريّيْن جعلت جراح الجزائر مفتوحة. الجزائر هي البلاد التي لا يمكن لها أن تعتني بجراحكَ وهي لم تُشفَ بعدُ من جراحها القديمة.

هل كان كمال يكتب عن الجزائر فعلاً؟ يجيب عن سؤاله بأنه يكتب انعكاس صورته وانكسارها عليها. اللفتة الذكية تكمن هنا: الكتابة هي انكسار الذات في العالم.

لونيس بن عليّ - الجزائر

تونس ١٣ جويلية ٢٠١٠

"ستنتظر القطار الآخر" قلتُ لنفسي. كرة أخرى مرّت على العارضة. صفّق لها الجمهور، ولم تُغيِّر شيئًا من نتيجة المقابلة. لا شيء يتغيّر أصلًا. أُغمغم في سرّي.

القرية التي ركضتُ في شعابها اليوم هاربًا من خبر موت المفكّر هي القرية نفسها التي طاردتُّ ورلانها وخنازيرها، واقتلعتُ قنابلها المقبورة من الحرب الأولى، قبل 36 سنة، وهي نفسها القرية التي عرفتْ غواية مجيئي الأوّل حين أتيتُ إلى الدنيا برَقْم 10.

***

أن يحمل المرء رَقْم 10، فهذا يُحمّله مسؤولية الفريق كلّه. زادت المسؤولية عندما أقصى حكمُ اللقاء اثنَيْن من أخوتي، ليُبقي على سبعة، أنا ثامنهم. قوانين اللعبة العائلية عادة ما تكون ظالمة لرَقْم 10، فتُكلّفه بالأعمال الحقيرة التي يتعفّف عنها رَقْم 5 ورَقْم 7 كبار الفريق: جلب الماء من البئر الجافّ، ورعي الماعز.

كنتُ أنا، رَقْم 10، أرفض الأوامر بشدّة، وألوذ بالجبال. الجبال التي احتضنت احتجاجي هي التي احتضنت شَطَطي بعد ذلك. كانت مزروعة بالخنازير والأفاعي العالقة بأغصان الصنوبر، وبالسقف القشيّ للبيت الطينيّ؛ بيت العائلة. قرية ظمأى، تسبح في الظلام. كان يمكن أن أتخرّج

فيها، أنا رَقْم 10، مجرمًا ذا شأن بعد أن جرَّبتُ موهبتي على الحيوانات البرّيّة والأهلية كلّها، فطاردتُها بالنبلة والسّكّين والحجارة. كنتُ أريد أن أُثبت قدرتي على إدارة ذلك المكان الذي رفضَني، ودفع أمّي إلى السفر نحو قرية العدوّ البعيد، لترميني وأنا جنين في الشهر الثالث. رفض الطبيب طلبها، وعادت إلى البيت، والتهمتْ الحشائش السّامّة كلّها التي كانت تغدق بها أرض تلك القرية التي بدتْ كأنها متآمرة عليّ معها.

رَقْم 10 رَقْم خطير، حسدني عليه حتّى التراب والحجر. تعلّقتُ بأمعاء أمّي، ورفضتُ أن يقتلني سمّ أرض مهمَّشة، تحمل اسمًا فظيعًا؛"المنافيخ".

المنافيخ التي نزلتُ بها لم تحتملني، ولم تحتمل جنوني، لذلك قذفت المنافيخ بالمنفوخي الصغير إلى المدينة، حيث كانت تنتظرني سموم أخرى أقوى من سموم حشائش أمّي، تخندقتُ وراء أقلام الرصاص، وقلتُ أطيح هذه المدينة بالخيال.

هناك في الجزائر، ما تذكّرتُ قريتي إلا وارتسمتْ أمامي صورة مكان كابوسي، متوحّش. لم أكتبْ عنها كما كتب معظم الكتّاب بحنين المحروم. على العكس تمامًا كانت مخزن الرعب. ذاكرة الخوف. كلّما أردتُ أن أستحضر الخوف أو أخلقه في مشهد، ركبتُ طريق قريتي البائدة مستحضرًا عوالمها وسكّانها. الآن لم أعد أكرهها، أعلم ألا ذنب لها في قسوتها. لعلّها مكانٌ متخيّل، صنعهُ روائيّ مجنون، خلقه وتركه إلى مصيره. أقول لنفسي. أو هي بقايا ديكور فيلم رعب بُنِيَ وتُرك بعد الفيلم، لتعشّش فيه الأرواح.

في ذاكرتي الآن مقبرة مفتوحة قبورها القديمة والحديثة كلّها على السواء، مزرعة ثعابين وخنازير وذئاب. تخنق سماءَها أشجارُ البطوم، وفي قلبها نعش من خشب، طارت مساميره، كنتُ أنا؛ رَقْم 10 أستلقي عليه

في القيلولة القاتلة، لأستمتع بأزيزه. كنتُ أفرّ بشرف رَقْم 10 من طلبات المدرّب، ذلك الرجل الذي يطالب بالدفاع عن المرمى، أو بتمرير الكرة إلى الأجنحة؛ الأخوة العالقين في العشب.

التقطتُ، مرّة، جمجمة ضخمة من قبر مفتوح، لففتُها بالكتاتين، وانطلقتُ بها إلى الملعب. قلتُ لمنافسي الهدّاف الحقير: سنحسم الأمر هذا المساء: ضربة جزاء لكَ، وأخرى لي. قال منافسي الساقط في الشِّرك: ومَنْ يسدّد أوّلًا؟ أجبتُه أنا رَقْم 10:"التسديدة الأولى لكَ. سدِّدْ أنتَ أوّلًا." سدّد الخصم، وسقط! أخذتِ الجمجمة أصابعه. أعلنتُ زعامتي على الملعب. الأرض الأولى التي أحتلّها من أرض طارِدَة. وُلدتُ هناك في رحم عدوّ.

في العاصمة تونس، ظللتُ ،أحلم كلّما مرّ القطار أمامي، بزيارة قبر أبي. ظللتُ أحلم أكثر من 10 سنوات، ولم أقدر، كان رَقْم 10 يخشى القنبلة التي أعاد زرعها والده في مكان مجهول. بينما لم يُدرَج المكان إلى الآن ضمن خطط نَزْع الألغام من الأراضي الملعونة. ليس أسخف من أن يطير بكَ لغم إلى السماء.

القرية نفسها التي رأيتُها اليوم تتآكل بين فكيَّ الغاب، ويفرّ أهلها إلى السهل، أين القبور البيضاء الكبيرة الواسعة التي يُسمّونها مجازًا "بيوتًا"، هي نفسها موطن حبّي الأوّل الذي ردمتُهُ بعناية، كما ردمتُ سرّتي وجلدتي الثانية في مجاهلها. أراها قريتي اليوم مزرعة ألغام جديدة، أرض شهوات مخنوقة. عالقة هي الأحلام كما تركتُها منذ أعوام في حناجر الأطفال.

- أقف الآن في محطّة القطار، ألفّ قبضتي بقطعة من القماش الملوّن. التقطتُه من الرصيف، كنتُ ضربتُ باب القاطرة الأخيرة للقطار الهارب

بقبضتي منذ قليل. كيف أثق في قرية كهذه، وأهب لها جثّتي؟ أجلس الآن أُفكّر. اليوم أيضًا قرية أخرى هناك تخون. تنكّرت "قحافة" للمفكّر. لا أحد سار في جنازته. ملعونًا عاش ومات، أو سُمّم المفكّر.

الآن فهمتُ لماذا تركتُ هذه الورقة فارغة من هذا الدفتر منذ عام. أُفكّر بوصية أبي زيد. "اكتبوا على قبري، هنا يرقد رجل كان يحلم".

الجزائر / 2009

بقبضتي منذ قليل. كيف أثق في قرية كهذه، وأهب لها جثّتي؟ أجلس الآن أُفكّر. اليوم أيضًا قرية أخرى هناك تخون. تنكّرت "قحافة" للمفكّر. لا أحد سار في جنازته. ملعونًا عاش ومات، أو سُمّم المفكّر.

الآن فهمتُ لماذا تركتُ هذه الورقة فارغة من هذا الدفتر منذ عام. أُفكّر بوصية أبي زيد. "اكتبوا على قبري، هنا يرقد رجل كان يحلم".

الجزائر / 2009

5 أكتوبر

سقط جواز السَّفَر من يد حرس الجمارك. نزلتُ ألتقطه. ابتسم الدَّرَكي دون اعتذار. تطايرتْ من رأسي غربان وأورال. في البوّابة، قذفتُ بالحقائب على الحزام المتحرّك في اتّجاه صندوق الماسح الضوئي. أجبرني دَرَكيّ اخر على نَزْع حزامي. جرس الإنذار مازال يوجّه اتّهامه. أشار إليّ آخر بنَزْع الحذاء. رميتُهُ على الحزام المتحرّك. قذفتُ بكلّ شيء على الحزام. ما زال الجرس يعوي. تتساءل عينا الدَّرَكي "ماذا تخفي؟". فتّشوا بين العظم واللحم عن ممنوع فيّ. لا سكّين لديّ، ولا رصاص. لا شيء. الإنذار مستمرّ. يملّ دَرَكي التوتّر. "جُوزْ".

أتقدّم من بوّابة الخروج بمطار هوّاري بو مدين. أُشعل سيجارة، وأنظر إلى السماء الرصاصية. حزينة كانت دون مطر. أسحلُ، مع الحقيبة الثقيلة، أحلامًا وذكريات. أعدّل حقيبة الظهر، وأمضي.

- يهذي سائق التاكسي عن كرة القَدَم، وعن مقابلات وأسماء ومواعيد قريبة. يهذي بحبّ بلاده وبلادي وبتاريخ مشترك. لم أكن أتابعه، كنتُ مشغولًا بما تركتُه خلفي. عند المفترق. تمرّ الصور أمامي شريطًا بالأسود والأبيض، يزعجها صوت السائق الذي انطلق يدندن مع أغنيّة راي قديمة. تقفز بين حين وحين في رأسي ابتسامة الدَّرَكي وجوازي طائرًا في سقوطه.

تنهش سيارة التاكسي بصوت سائقها ومطربه المجهول الإسفلت الطويل الذي لا ينتهي، وتركض بي الأحزان في طُرُق تتساقط بعدي مثل جسور من طين.

بالغرفة التي تمدّدتُ فيها على سرير مُسنّ. طرقتِ البابَ خادمةٌ قبيحةٌ، سلّمتْني مصباحَا، وأدبرتْ تمضغ ابتسامة الدَّرَكيّ نفسها الذي تركتُه بالمطار. لم يدُر مصباحها. سقط العالم من حولي في العتمة. اختفتْ ساعتي وهاتفي وعلبة سجائري وشقوق رأيتُها قبل حين بالجدار. اختفى الفانوس الميت في السقف. اختفتْ ملابسي والحقيبة هناك تحت النافذة اليتيمة. أكلها الظلام، اختفت قدماي وذراعاي؛ اليمين والشمال. أغمضتُ عينيّ، وقفزتُ بدوري هناك.

7 أكتوبر

"15 يومًا فقط، وأبحث عن بيت للإيجار". قالت السّيّدة. "الغرف القليلة هنا للزائرين العرضيّيْن. للأساتذة الزائرين. أنتَ هنا ستكون موظّفًا مقيمًا بعقد مؤقت".

هكذا علمتُ أنني أيضًا مؤقّت. لا مستقرّ. أكثر من ثلاثين سنة أعيش بلا سكَن. كان دائمًا سؤالي المحيّر الذي شكّلتُ به روايتي المشرط: أين سنبيتُ الليلة؟ لم تكن تلك المومس الضائعة في البارات إلا أنا. رجل يتدحرج من غربة إلى غربة، ومن غرفة إلى غرفة. حتّى عندما تزوّجتُ وأنجبتُ، كنتُ أشعر أنني ضيف على الفضاء. بيت لا يُشبهني، ولم أحبّه. مُجرّد بيت في نهج الرصاص. استقبلَني بشتّى أنواع المرض. مع إدخال المكتبة الثقيلة تدمّر ظهري. فقرات تعانقت. أربعة أشهر من الآلام المبرحة. أربعة أشهر من النوم على خشبة، أحلم بتلك الثريا الفارسية الضخمة، التي أهدوها لنا، وثبّتوها في السقف، وقد سقطت عليّ. كنتُ أرى كلّ ليلة دماغي تتفجّر، لتلحق وجهي. لم يكن هناك مكان آخر أنام فيه إلا تحت تلك الثريا. فالأرائك ممنوعة. أربعة أشهر أشعرتْني، وبشكل نهائي، أنني راحل عن هذا البيت. لم أكن أعتقد أنني سأقف من جديد على قَدمي. الأطبّاء كلّهم فشلوا في تشخيص حالتي. وفشلت المضادّات الحيوية في تخفيف الألم. كنتُ أشعر طوال الوقت أنني نائم، لكنني أتألّم.

اليوم وأنا أتأمّل هذا السقف، رأيتُ ذلك المصباح الصغير المحروق يتعاظم، ليصبح بالونة ضخمة من زجاج تنفجر، وتُسقط عليّ شظاياها، لتخترق جثّتي النحيلة.

كيف سأبحث عن مكان هنا ولا مال ولا أصدقاء؟ الذين أعرفهم كلّهم هنا تبخّروا. مُجرّد كائنات رقْمية. حتّى في هذه الفضاءات لم أعد أراها. أقربهم سألني بكلّ برود :"لماذا تأتي إلى الجزائر أصلًا؟" وكأنني أتيتُ سياحة لا هاربًا من بشاعة واقع ونظام باحثًا عن حليب لذلك الطفل الذي ظلّ يأكلني بعينَيْه 18 شهرًا.

كنتُ أفرّ منه إلى حديقة قريبة آخر الليل، لأجلس إلى الظلام أبكي كأيّ قرويّ خشن. لا يعلم أهل المُدُن كيف يبكي أهل الريف. بكاء الرجل الريفيّ في العتمة تتشقّق له البنايات الشاهقة، وتنفجر لسماعه مخازن الصّداع، ويُجهِض الأجنّة في الأرحام.

لم أعرفْ ذلك البكاء إلا مع مجيء الطفل. ومن حظّي العاثر لم يكن يبكي عندما يجوع. كان فقط ينظر إليّ في مواساة. لا لوم في عينه أبدًا وكأنه يقول لي: لا تحزنْ أكثر، فقد أتيتُ، لكي أراكَ، فلا أحد يراكَ في هذا الحزن وأنت تبتسم طوال الوقت.

مازال هناك وقت، سأبحث عن جحر جديد.

9 أكتوبر

لا أدري لماذا ورّطتُ نفسي في تدوين هذه اليوميّات؟! ها أنا أنهض من نومي، لأسجّل أنني غير قادر على الكتابة، وليس لي ما أضيف على ما ارتُكب اليوم. من بلادة هذا اليوم، أراه أصغر من أن يُذكَر.

10أكتوبر

اليوم التقيتُ بامرأة جميلة، لكنها أيضًا بلا مأوى.

11 أكتوبر

سعال. دم.

12 أكتوبر

لا حديث هذه الأيّام في تونس إلا عن الاستعدادات للانتخابات الرئاسية القادمة. تذكّرتُ علية الكوكي مهندس الميكانيكا أصيل مدينة جندوبة الذي أعلن نيّته المشاركة في الانتخابات، ورفع في برنامجه الانتخابي شعار"مكافحة الفساد والرشوة والمحسوبية واستغلال النفوذ والالتواء على القوانين، لتحقيق منافع شخصية، وذلك عبر أحداث مؤسّسات لها الغرض".

بحثتُ عن اسمه بين المرشّحين، فلم أجده. الكوكي وُقّع الإفراج عنه من مستشفى الرازي للأمراض العقلية والنفسية في جويلية الماضي بعد أن زُجّ فيه منذ مارس الماضي، وعندما أطلق سراحه، رفض الإدلاء بأي تصريح للصحافة.

مصير منْ يريد أن يحارب الفساد في البلاد مصير الكوكي، لذلك أفهم كثرة المجانين في الشوارع. الدولة التي تترك مرضاها في الشوارع، يعني أنها حجزت الأسرّة لمجانين السياسة ومكافحة الفساد.

صراحة شعاراته مضحكة ومجنونة، لأنها لا تبدو برنامجًا انتخابيًا، إنّما شتائم تصف النظام، لذلك هو مجنون تمامًا مثل ذلك الرجل الذي أكتب سيرته في روايتي الغوريلا، والذي تسلّق برج الساعة المحظور. بعد أن

أرلوه بصعوبة، وأشبعوه ضربًا، وزّعت وزارة الداخلية على الصحفيّين بيانا واحدًا يقول إن رجال الأمن أنقذوا شابًا مجنونًا من الانتحار من فوق الساعة.

هل لعدد المجانين بالشارع هنا علاقة بمقاومة الفساد؟ يبدو أن الأمر هنا مختلف قليلًا، فالوضع أكثر قتامة حتّى كأنكَ لا ترى أحدًا يحتجّ. العشرية السوداء جعلت الجميع يستسلم: الأمن مقابل الفساد.

هل يمكن أن يترشّح للرئاسة مواطن من الشمال الغربي؟! 08 ومن جندوبة تحديدًا. يقال إن جندوبة سُمّيت بهذا الاسم نسبة إلى مجنون، اسمه دوبه، فأخذت الألسن تداول. دوبة جن، مابه دوبة؟ دوبة جن، جن دوبة، وهكذا نحت الاسم، وهي الأسطورة نفسها التي يتداولها أبناء المنطقة التي اشتغل فيها دالي إبراهيم، فدالي كلمة تركية تعني المجنون. هل فكّر إبراهيم المجنون في الترشّح للرئاسة هنا أيضًا؟

لا أدري لماذا أنشغل بما يحدث هناك، وأنا بلا مأوى هنا. لا وطن هناك، فكيف أطلب غيره هنا، وبلاد العرب متشابهة؟ المضحك في الأمر أنني رفضتُ عروض عمل بالخليج في وقت سابق، وقبلتُ المجيء هنا للجزائر. ربّما ما قمتُ به يؤكّد أنني لا أريد أن أترك البلاد. مُجرّد ميكانزمات دفاع جديدة للصمود. فقد ظلّتْ فكرة أن أترك تونس فكرة كابوسية لي. ربّما بمجيئي للجزائر أنقذتُ نفسي من مَنفى آخر أبعد. مَنْ أدراني أن هذه التجربة لن تكون أثقل وأسوأ من أيّ هجرة؟! ها أنا أسعل، وحولي حقل من مناديل الدم.

13 أكتوبر

وجهي غابة من الأحاسيس. المشاعر متداخلة في المرآة ذكّرتْني بوصف ديستوفسكي لوجه بطل قصّته "المهرّج". لا شيء ثابت. لا شيء واضح. لا يقين. مُبعثرٌ أنا على امتداد الوجه. مُتناقضٌ مثله هنا بهذه الهيئة الجادّة التي ألبسها كلّ صباح، لأمارس دور رئيس القسم وبين هشاشتي الداخلية؛ هشاشة هذا المُبعَد الذي نجح في أن يهرب نصفه هنا. كان الطفل الذي تركتُ ورائي هو نصفي الهشّ الذي يبدو ممدّدًا على كامل الوجه لمَنْ تأمّلني لنصف دقيقة. يبقى الرجل قويًا حتّى يُنجِبَ. الأبوّة مصيبة، لا نتحقّق دونها. بين الأب والمهرّج شبه. ذلك الأب الذي يمارس دور الرّبّ القوي أمام العائلة. الفرد الذي يتموقع، زيفًا، في مرتبة أعلى من الفرد، لأنه مسؤول عن أفرادها كلّهم، وهو يعلم جيّدًا أنه يتيم حديث. كائن هشّ. ممنوع عليه أن يبكي في العَلَن، فيلوذ بالحمّامات والغابات، ليبكي. وينتهر موت الأب، ليبكي في العَلَن قليلًا، بما يسمح به المقام دون أن يُسرف في هتك صورة المهرّج المرح الذي عليه ألا يُظهر شيئًا من حزنه.

أمام مرآتي هذه ظلّت الشهقة معلّقة في الحلق تحت فراشة المهرّج الضخمة.

"كان شهيدًا، لكنه شهيد بغير طائل، وهو لهذا نفسه مضحك تمامًا".

14 أكتوبر

مازالت مديحة كامل التي رأيتُها في زيرالدا ترقص في رأسي. لكنْ، عليّ أن أذهب إلى دالي إبراهيم. هناك سأرى من البشاعة ما يكفي لأستفيق.

سعال دون دم.

15 أكتوبر

07.33

اليوم هو اليوم العالمي لغسل اليَدَيْن بالصابون المعروف بـ GHD. أضحك وأنا أتلقّى الرسالة على بريدي الإلكتروني هذا الصباح من جهة مجهولة.

تأتيكَ أحيانًا رسائل غريبة، وبالصدفة، لكنها تؤثّر في يومكَ، وقد تقلب حياتكَ.

قرأتُ الخبر الذي يقول إن الجمعية العامّة للأمم المتّحدة اختارت السنة الماضية يوم 15 أكتوبر يومًا عالميًا لغسل اليديْن بالماء والصابون، وهدفها التحسيس بتفاقم ظاهرة الوفيات، بسبب أمراض الإسهال. ضحكتُ وأنا أستجيب للرسالة، وأغسل يَدَيّ بالماء والصابون. لا أدري لماذا اشتريتُ الصابون، وأنا أكتفي بغسل يَدَيّ بالماء وحده، ولا ألتفت إلى الصابون إلا للتّطهّر. أبتسم وأنا أشعر أنّني أخيرًا احتفلتُ بعيد. عيد غسل اليَدَيْن بالصابون. لكنني تطيّرتُ، فأحالتْني الحكاية أيضًا إلى فكرة غسل اليَدَيْن بالماء والصابون من الأحلام كلّها. لا أمل إذا قلتُ، وهذه إشارة ألا أمل يُرجى من هذه التجربة. هذه الجمعية للأمم المتّحدة متى تُطلق يومًا لغسل اليَدَيْن من القَتْل، ومن الفساد، فالأيادي القذرة في كلّ مكان، والأيادي

القذرة هي التي رمتْني هنا، والأيادي القذرة هي التي تلقّفتني. سأغسل يديّ بالصابون، أيّتها الجمعية القذرة صباح مساء، وسأجلس هذا المساء.. أقرأ مسرحية الأيدي القذرة لجان بول سارتر، هكذا حدّد لي القدرُ ما أقرأ هذا المساء. حدّدتْ لي جمعية الأمم الخرّاء ماذا أقرأ الليلة.

عليّ أن أذهب الآن إلى العمل.

00.47

- لا شيء غير الأيدي القذرة. أشعر وأنا أُنهي المسرحية أنني في ورطة هوغو بطل المسرحية. مُطالبٌ هنا أن أصمتَ على ما تركتُ بلدي من أجله. الاستبداد والفساد تكاد تراه ممددًا في قطعة الخبز، وسائلًا في الزيت، وعلى ألسنة الجميع؛ مثقّفين وإعلاميّيْن وموظّفين. الكلّ يريد أن يهبر، والكلّ لا يعمل. وقصّة النيف الجزائري مُجرّد أسطورة، فحولي تتخندق وراء المكاتب كائنات رخوة حلازين عنيدة، تمصّ دماء الضعفاء، وأخرى جبانة وضعيفة، ترفع مؤخّراتها للنيك الحكومي والدولي والدولار واليورو.

هناك من تونس تصلني الأخبار عبر نشرة سرّيّة، تُخبر عن منع إدارة سجن برج الرومي عائلات عشرات مساجين الرأي المضربين عن الطعام من الزيارة بدعوى رفض المساجين مقابلتهم. أخبار أخرى عن اختطافات في صفوف الشّبّان التونسيّيْن من قِبَل البوليس السياسي. يبدو أن حملة الاعتقالات تستهدف أساسًا، حسب الخبر، الشّبّان المتديّنين.

أشعر أن هذا النظام البليد يُربّي غولًا في السجون وخارجها، وأنه سيبتلعنا يومًا.

كنتُ أعلم أنه يوم خراء كغيره يوم عيد غسل اليديْن بالصابون. سأغسل

لأكتب قليلاً في الرواية. أشعر أن هذه الأخبار تدعم الخطّ الذي سارتْ فيه الرواية إلى الآن: الخطف والتّطرّف والجماعات المسلّحة والنظام الأرعن.

قبل ذلك كلّه، سأعود إلى الحمّام، لأبول على كلّ ما قرأتُ هنا وهناك، وأبول على يدي، لتكتب أفضل. الأيدي النظيفة مقزّزة كَيدي جرّاح.

17 أكتوبر

أرتجف الآن عاريًا تحت الغطاء. مازال شعري مبلّلًا.

كنتُ هناك. أتذكّر. في "بوزريعة" أعلى منطقة بالعاصمة. برد أسطوري. مالك بيت يعرض علينا غرفة بائسة. يقول باستخفاف "يمكنكما أن تستأجراها معًا". سأقسمها لكما بستارة. زميلتي المنكوبة مثلي بضرورة اختراع مأوى تنظر إليّ. في عيني تاريخ ارتباط وطفل. نخرج منكسرَيْن بإهانة. في الطريق تنفلت الأعصاب. أطلب منها أن تُنزلني. من بوزريعة إلى هنا بدالي إبراهيم أمشي تحت وابل من المطر والبرد. لستُ حاقدًا عليها. هي وضعها أفظع من وضعي.

18أكتوبر

اشتريتُ اليوم بعض السيديهات لأغاني أمازيغية هدايا سأحملها لأصدقائي في تونس.عندما يسألونني عن حالي، سأقول لهم اسمعوا، هذه الأغاني تُشبهني تمامًا. الأغاني إيقاعية راقصة، ولكنّ شيئًا ما يقول لي إن حزنًا يعشّش وراء الكلمات. الموسيقى. لا نحتاج لنفهم كلّ شيء. قد نحزن لشيء دون أن نفهم. منذ يومَيْن اكتشفتُ أن فأرًا صغيرًا يسكن معي. أسمع خشخشاته كلّما أطفأتُ النور. نسيتُ أن أسجّل أنني أخيرًا اشتريتُ مصباحًا جديدًا. ليس بخلًا في الحقيقة، لكنني مازلتُ أشعر بفوبيا الضوء النازل فوق رأسي من السقف، لذلك أستعين بمصباح مكتبي صغير، لأقرأ.

اشتريتُ مبيدًا للفئران، ولم تختفِ خشخشاته. البارحة غيّرتُ أداة الصيد. اشتريتُ لاصقًا قويًا، نصحتْني به زميلة بالعمل. مع الفجر، سمعتُ صوته مثل الصرير. كان عالقًا بأقدامه الأربع في اللاصق. جلستُ أمامه أتأمّله. باغتتْني دمعة ثقيلة وأنا أراني في عينَيْه الجميلَتَيْن، يحرّك رأسه الصغيرة بعنف. كنتُ مثله عالقًا في هذه الحياة. جئتُ بالقوّة، لأعلق من جديد في هذا الوجود الثقيل كاللصاق. لا أنا حيّ ولا أنا ميت. مشدود طوال الوقت بحبل سرّة بعيدة.

نهضتُ. أدرتُ أغنيّة شاوية حزينة. وضعتُ المسجّل أمام الفأر العالق. وعدتُ إلى النوم. كنتُ أعلم أنني، وأنا أنام، سيكون الفأر يحتضر على أنغام

الأغنيّة. هذا الصباح وجدتُهُ مسجًّى على خشبة اللصاق. حملته، وقذفت به من النافذة. كان هناك مُلتحٍ بقميص يمرّ بالشارع. سقطت الخشبة بجانبه. رفع رأسه. أقفلتُ النافذة، ونزلتُ. كان صاحب القميص يمشي أمامي نحو المحطّة حتّى وصلتُ. جلس، فجلستْ بجانبه. يسترق النظر إليّ، وأسترق النظر إليه. وصلت الحافلة، ركبتُ وركب، مرّ نحو المقدّمة بجانب السائق. جلستُ إلى مقعد بالمؤخّرة.

اليوم لديّ موعد آخر مع سمسار آخر للبحث عن شقّة للإيجار بالعاصمة.

مساء

أعلنتْ مؤسسة هاي فيستفال منذ ساعات اسمي ضمن قائمة الكتّاب الفائزين في مسابقة بيروت 39 لأفضل 39 كاتبًا. أُمرّر عينَيّ على القائمة. لا تونسي في القائمة غيري. إحساس غريب ذبحني أن أرى تونس أمام اسمي بين قوسَيْن: أحمد سعداوي (العراق)؛ أحمد يماني (مصر)؛ إسلام سمحان (الأردن)؛ باسم الأنصار (العراق)؛ جمانة حدّاد (لبنان)؛ حسين العبري (عمان)؛ حسين جلعاد (الأردن)؛ حمدي الجزّار (مصر)؛ ديمة ونّوس (سورية)؛ ربيع جابر (لبنان)؛ رندا جرّار (فلسطين)؛ روزا ياسين حسن (سورية)؛ زكي بيضون (لبنان)؛ سامر أبو هوّاش (فلسطين)؛ سمر يزبك (سورية)؛ عبد الله ثابت (السعودية)؛ عبد العزيز الراشدي (المغرب)؛ عبد القادر بن عليّ (المغرب)؛ عبد الرحيم الخصار (المغرب)؛ عبد الرزاق بوكبة (الجزائر)؛ عبد الله طايع (المغرب)؛ عدنية شبلي (فلسطين)؛ علاء حليحل (فلسطين)؛ فايزة غوين (الجزائر)؛ كمال الرياحي (تونس)؛ محمّد حسن علوان (السعودية)؛ محمّد صلاح العزب (مصر)؛

الصويم (السودان)؛ منصورة عزّ الدين (مصر)؛ ناظم السّيّد (لبنان)؛ نجاة عليّ (مصر)؛ نجوى بن شتوان (ليبيا)؛ نجوان درويش (فلسطين)؛ هالة كوثراني (لبنان)؛ هيام يارد (لبنان)؛ وجدي الأهدل (اليمن)؛ ياسين عدنان (المغرب)؛ يحيى إمقاسم (السعودية)؛ يوسف رخا (مصر).

لا أحد أحتفل معه الليلة بهذا الفوز. مرّة أخرى تُسرق منّي فرحة النجاح. سنة 2007 كنتُ في سلطنة عُمان عندما تُوِّجتُ بجائزة الكومار الذهبي عن روايتي المشرط. سبقتْها محاولات متكرّرة لقرصنة الجائزة، بدافع أن الرواية تُسيء للسلطة. فوجدتُ دعوة مؤسّسة ثقافية عُمانية ذريعة لأغادر البلد، ولا أحضر تسليم الجائزة. اليوم وبعد عامَيْن أُتوّج بجائزة عربية، وأنا هنا أبحث عن عمل بعد أن أُوصِدَتْ في وجهي الأبواب كلّها هناك.

ليس مهمًا قلتُ لنفسي. أشرب سيجارة مع صديقتي الفرنسية. سأقضي الليل أتعرّف عبر الإنترنت على بقية الفائزين الذين لا أعرفهم.

أُفكّر في القوسَيْن أمام اسمي وأنا أدخّن.

19أكتوبر

بحثٌ جديد، وبيتٌ لن أجده.

سأبقى اليوم في البيت أكتب. بدأتُ أُفكّر في نسف روايتي الغوريلا كالعادة. مَنْ سينشر هذا الجنون. المارلبورو الجزائري التعس يأكل صدري. عليّ أن أتوقّف عن التدخين. سعالي لم أعد أتحمّله. سأُرسل قبل كلّ شيء رسالة لـ (نصر حامد أبو زيد) أتفقّده. لن أحدّثه عن الكتاب. البارحة رأيتُ شخصًا يعاني نوبة صَرَع. وقفتُ مع مَنْ وقف نراقبه، بينما تطوّع أحد المشاهدين ليحمي رأسه من البلاط. كان فمه يقذف فقاقيع اللعاب وهو يشخر شخيرًا مُرعِبًا. ظلّ هكذا لدقائق قبل أن يدخل في إغماءة طويلة. ربع ساعة من الموت. لم أبرحْ مكاني. كنتُ أتابعه حتّى استفاق شيئًا فشيئًا. كان وجهه شاحبًا. وقف. ودون أن ينظر إلى أحد غادَرَنَا. هرول قليلًا، ليبتعد عنّا. ثمّ واصل طريقه باتّجاه لاغروند بوست. انشغلتُ لبعض الوقت في حديقة هناك. كان بعض الباعة يبيعون كُتُبًا قديمة. اشتريتُ رواية "نصف جزاء" لرشيد بوجدرة في ترجمة عربية، وعدتُ إلى دالي إبراهيم.

كان ذلك الرجل المحتضِر يُشبهُني وهو ينهض هاربًا من الحشود.

20 أكتوبر

- دالي إبراهيم. المكتب. الساعة 10.48

العيش هنا مميت. وظيفة روتينية تُشعرني أنني مترجم ترجمة رديئة إلى شيء يُشبهني أو يدّعيني.

لَغَطٌ كبيرٌ حول موضوع جائزة بيروت 39. لم أتلقّ أيّ تهاني من الكتّاب التونسيّيْن، باستثناء شوقي العنيزي ونبيل درغوث إلى الآن. بعض الذين شاركوا في الجائزة ولم ينجحوا اختفوا من الفايسبوك.

أفتح إعلان الجائزة، وأقرأ بصوت عال:

جاء في بيان اللجنة: "ما تجدر الإشارة إليه أوّلًا هو غزارة المشاركة الشبابية في المسابقة، إذ بلغ عدد المشاركين أكثر من 450 كاتبًا وكاتبة من معظم الدول العربية، ومن المغترب العربي الأوروبي والأميركي. وكان على أعضاء لجنة التحكيم أن تُراجع أعدادًا كبيرة من الكُتُب التي أرسلها المؤلّفون والناشرون، وتقرؤها وتفرزها. وقد اعتمدت لجنة التحكيم منهج الاختيار المتعاقب، فاختارت في البدء مئة اسم، ثمّ ستّين اسمًا، إلى أن توصّلتْ إلى الأسماء التسعة والثلاثين بعد نقاشات طويلة وعرض للكُتُب.

الأسماء التسعة والثلاثون التي اختيرت تم اختيارها انطلاقًا من رسوخ

نتاجها الإبداعي، روائيًا وقصصيًا وشِعْريًا، وما يُمثِّل من أعمال تحديد في الوقت نفسه، ومن استجابة للمعايير الأدبية والنقدية. إنها أصوات مبدعين شباب، استطاعوا أن يُكوّنوا شخصياتهم، وأن يفرضوا تجاربهم، متميّزين بأساليبهم الخاصّة ولغاتهم ومقارباتهم، ورؤاهم أو مواقفهم."

ليلة ملتبسة المشاعر مرّة أخرى. لكنْ، اليوم سأعالجها بالتانغو. هيّأتُ نفسي، لكي لا يُسقِطني الإحباط.

21 أكتوبر

23.40 -

إنه عهد جديد، سيُفرز الأحرار من العبيد.

كتب اليوم القاضي مختار اليحياوي عن الانتخابات الرئاسية القادمة.

تذكّرتُ إضراب الجوع الذي عشتُه قبل أشهر مطالبًا بحقّي في العمل، والذي انتهى بتهديدات بالقتل عبر مكالمات مجهولة: "نيك أمّك. وأمّ إضراب الجوع متاعك." "مازلت تكتب حاجة على الفايس بوك نقصولك بشولتك". "شكون الي يحرض فيك على أسيادك، يا ولد القحبة؟". "واصل حتّى تجيك دغرة في الظلام" "منيك كان تتصوّر نفسك مش تلوينا يدينا بإضرابك. "

أتذكّر كيف كانت قائمة الأصدقاء تتقلّص مع كلّ يوم أستمرّ فيه في الإضراب، أو أكتب رسالة جديدة إلى الرئيس، أُرسل إليه مع التذكير بتعطيلي عن العمل بمقطع من روايتي الغوريلا المخطوط. أذكر الروائي عبد الجبّار العشّ وهو يكتب أن القرّاء في الفايس بوك يطالبون بتمديد بطالة كمال الرياحي، ليُمتّعنا أكثر بروايته الجديدة. عبارة حوّلتْ محاولتي الانتحارية الفردية لمواجهة "السيستام" إلى مزحة، جعلت اللايكات تنزل على منشوراتي، فالشعب لا يُصدّق أن يقف شخص أمام النظام. قسمٌ من

الشعب يريد أن يُبرّر خموله. عبوديّته التي يتحدّث عنها معمار اليحياوي. الملك يروّج البعض النكات والإشاعات المسيئة للمعارضين أكثر من أخبار مقاومتهم للاستبداد. أتذكّر قسمًا من المعارضين الشكليّين، وأبتسم. أتذكّر جريدة الوحدة الشعبية التي أراد صاحبها ورئيس حزبها أن يستغلّ بطالتي، ورفض أن يدفع لي مستحقّاتي عن موادّ، كانت تأخذ صفحات من الجريدة، لولا أنني تصدّيتُ له في مكتبه، وهدّدتُهُ بفضيحة.

إنه عهد جديد، سيفرز الأحرار من العبيد! هل صحيح أن هذا الشعب سيصنع لنفسه عهدًا جديدًا؟ هل يكفي عدد الأحرار في بلادي، ليصنعوا هذا العهد المزعوم؟ أتذكّر أن تونس أوّل بلد في العالم ألغى الرّقّ. لماذا، إذنْ، يتحدّث اليحياوي عن العبيد؟ أضحك. إننا حتّى لم نعدْ عبيدًا، نحن شيء آخر مثل المسخ. لا عبد أنتَ ولا حُرّ في تونس. شيء رخو يمشي في الأسواق، ويعمر مربّعات أوراق الرهان الرياضي والقمار.

أُغلق الكومبيوتر. وأسقط في هذه اليوميّات. ماذا حدث معي اليوم؟ لا شيء. لم أكن واعيًا فقط، كنتُ على قيد المنفى. أذرع الشّقّة كجمل الساقية معصوب العينَيْن. قلبي في مكان بعيد. أُقلّب صور ابني. هل تراكَ كبرتَ أكثر، يا هارون؟ كيف أصبحتَ؟ لمْ ترسلْ لي أمّكَ صورًا جديدة لكَ منذ مدّة. لا شيء يصلني منكما. الأكيد أنكَ نائم الآن. سأتخيّلك نائما على صدري، كما العادة، وسأنام. لكنّ عبارة اليحياوي مازالت تطنّ في أذني. مازالت تُزعجني. هل ستكون، يا ابني، من الأحرار؟ أم من العبيد في ذلك العهد الجديد؟!

22 أكتوبر

أنا الآن هنا أمام الكومبيوتر، أشرب البيرة الثالثة، وأقرأ نص الرسالة التي وصلتْ توًا من (نصر حامد أبو زيد). جواب جديد لسؤال آخر:

لنعد إلى الوراء قليلًا. إلى لحظة مناقشة أطروحتكَ هذه؟ كيف كانت الردود عليها؟ وكيف تمّ استقبالها في الأوساط الدِّينية الفكرية قبل قضية التفكير؟ ثمّ كيف دخلتْ سراديب التكفير، وقصّة هجمة أساتذة جامعة القاهرة التي أوصلتْكَ إلى المنفى؟

"استُقبلَت أبحاثي استقبالًا إيجابيًا، لا في مصر وحدها، بل في العالَمَيْن العربي والإسلامي. وحين أقول إيجابيًا لا أعني بلا تحفّظات مشروعة في رأيي؛ لأنها تفتح مجالًا للنقاش، يحتاج إليه أيّ فكر، لينضجَ ويتطوّر.

- قصّة التكفير لا يمكن فَهْمها خارج سياق مناخ الاحتقان السياسي/ الثقافي الذي غلّف الأجواء المصرية منذ بداية الثمانينيات بعد اغتيال رئيس الجمهورية السابق (السادات) في وضح النهار، وتحت وميض كاميرات الإعلام في احتفال مصر بيوم انتصارها. ازداد الاحتقان في التسعينيات بعد أن طالت يد الإرهاب قيادات سياسية في قلب القاهرة، وساعد مناخ "الفزع الحكومي" من الإرهاب في توسيع سلطة الفكر الدِّيني الذي يؤيّد النظام، ويدين الإرهاب بلاغيًا. امتدّت يد الإرهاب للمثقّفين، فاغتيل "فرج

عودة"، وتمّ الاعتداء على "نجيب محفوظ"، وانقسم المجتمع المصري إلى معسكرَيْن متنابذَيْن. وسط هذا المناخ جاء موضوع التّرقّي، واستطاع نقد غير علمي أن ينال موافقة اللجنة العلمية ضدّ تقريرَيْن إيجابيّيْن. ولم يكن هذا ليقعَ في مناخ أكاديميّ طبيعيّ، لم تُلوّثه ضغوط "الإرهاب" الذي سار فزّاعة النظام السياسي والإداري في مصر كلّها ضدّ أيّ نقد.

تحوّل موضوع "التّرقّي" إلى معركة، قرّر خصوم "حُرّيّة الفكر" حملها إلى القضاء. في ظلّ غابة القوانين والتشريعات في النظام القضائي المصريّ تمّت صياغة مسألة التكفير، والحكم بالرّدّة ...".

أغلقتُ الكومبيوتر. أحببتُ أن تكون الإجابة أعمق وأكثر تحليلاً. أردتُ أن أستفزّ السارد فيه. طالب الأدب. ليتداعى أكثر. هكذا لن يكون الكتاب كما أريد، عليّ أن أتوغّل في عقلكَ أكثر. أكره أن يجيبني ضيف، أحاوره بطريقة علمية، أو أشعر من خلالها أنه يُملي درسًا أو أشياء معروفة. لكني، في الغالب، أحمّل نفسي المسؤولية، فأنا، كمحاور، لم أستفزّه بالشكل الكافي. عليّ أن أرجّه، لأُسقط هذا التنظيم المرصوص للإجابات الجاهزة. كان ذلك سيكون سهلاً، لو كان أمامي، لأن نظرة مخاتلة منّي، أو حركة قد تجعله يقول شيئًا مختلفًا. لكنْ، ماذا سأفعل وأنا أحاوره عن بُعد؟! هو هناك حيث لا أدري يتكتّم عن مكان إقامته؛ مرّة يقول إنه في هولندا، ومرّة يقول إنه في أندونيسيا وأنا هنا في الجزائر، في هذه الغرفة تحت الأرض. هذه الغرفة الخزانة. أفتحها كلّ يوم، لأُخرجني منها كقميص من

23 أكتوبر

مات الفنّان زبير التركي عن سنّ 85 عامًا. تقول صفحات التواصل الاجتماعي. مات صاحب تمثال ابن خلدون، أنا حزين كما العلاّمة هنا بالجزائر. هو الآخر فرّ من التوانسة يومًا إلى هنا مثلي. من حسن حظّ زبير التركي أنه تحايل على بورقيبة، لمّا كلّفه بنحت تمثال لابن خلدون، فنحت صورته هو، لتكون في قلب شارع بورقيبة في مواجهة تمثاله. لم يكن في استطاعة بورقيبة أن يرفضَ التمثال، وليس له إثبات أن هذه الهيئة ليست هيئة ابن خلدون مؤسّس علم الاجتماع.

لا أدري لماذا يُصدّق الرئيس اليوم تلك الكائنات الرخوة من المثقّفين التي تحوم حوله، وهو يعلم أن المثقّفين أكثر مواطنيه غدرًا وتقلّبًا وتزلّفًا عبر التاريخ؟! هل نجا زبير التركي عندما مات قبل نتائج الانتخابات؟

24 أكتوبر

لا رغبة لي حتّى في شرب البيرة. حلمتُ البارحة بتمثال ابن خلدون يُسحَلُ في شارع بورقيبة، والأطفال يركضون خلفه ضاحكين. رأيتُهم يسحلونه من مكانه عند الكنيسة حتّى موقع الساعة. يحمله أولائك الرجال الغلاظ، ويرمونه في تلك البركة الملوّثة بقناني الماء وعلب الكوكا كولا. رأيتُ جثّته تطفو على الماء وفوقها الطحالب. كنتُ أشعر باختناق، كما لو كان هناك منْ يشدّ رأسي في برميل ماء. قمتُ، فوجدتني نسيتُ الكومبيوتر يشتغل. حرّكتُ الفأرة، فظهرت لي صورة زبير التركي. أطفأتُهُ منذ ساعة، وها أنا أجلس مقرفصًا في هذه الخزانة، أنظر في الجدار المقابل الذي لا شيء فيه. ربمّا ظهر لي شيء من خلف هذا البياض. غدا يومًا ثقيلاً كهذا الكابوس.

25 أكتوبر

- محمّد بوشيحة عن حزب الوحدة الشعبية :5.01%

أحمد الإينبولي عن الاتّحاد الديمقراطي الوحدوي: 3.80 %

أحمد إبراهيم عن المبادرة الوطنية من أجل الدمقراطية والتقديم: 1.57%

زين العابدين بن عليّ عن التجمّع الدستوري الديمقراطي:89.62%

العدد الإجمالي للأصوات: 4،440،187

الأوراق البيضاء:7،201

عدد المُصوِّتين: 4،447.388

نسبة المشاركة : 89.45

المعارضة: النتائج مهزلة.

هيومن راتس ووتش: نشكّ في حُرّيّتها ونزاهتها.

قناة تونس 7: شفافة وديمقراطية.

26 أكتوبر

رأيتُ أبي يقرأ القرآن كلّما توقّعنا كارثة قادمة. يجلس من الصباح يقرأ في مصحفه درءًا لذلك الخطر. عندما نهضتُ البارحة، هُرعت إلى الكومبيوتر وفي ملفّ قد سمّيتُهُ المكتبة، نزّلتُ فيه مئاتِ الكُتُب المقرصنة، بحثتُ عن "البصيرة".

- كان يجب أن أعيدَ قراءتها، لعلّ معجزته الانتخابية تحدث. أن يضع الناخبون أوراقًا بيضاء. لكن الشعب خذلَني مرّة أخرى. قلتُ ربحت إعادة قراءة تلك الرواية.

أن تقرأ لجوزيه ساراماجو يعني أن تظلّ طوال الوقت واقفًا كشجرة، فهذا الكاتب لا يكتب ليُسلّيكَ، أو يجلب لكَ النوم، أو يرافقكَ في تجربة البرونزاج. عليكَ أن تعلم وأنتَ تقرؤه أنكَ وقعتَ بين يَدَي كاتب سيُدمّر يقظتكَ، ويخلخل فكرتكَ عن قايين وجريمته. وأنه جاء ليزجّ بكَ في خيالات فرناندو بسوا القاتلة، وجاء ليلوح بكَ خرطوم فيله إلى مسيرة مهلكة. "البصيرة" التي اخترتُها قرآن البارحة لم تنفع.

هل الانتخابات زُوِّرَتْ؟ مَنْ سيُثبت ذلك؟ يجب على كلّ مواطن أن يأتي بدليل أنه لم ينتخب الرئيس. 89.60 بالمائة قلتُ لنفسي شيء مبشّر، النتائج الماضية كانت 99%.نحن شعب يتقدّم نحو الديمقراطية

النموذجية بخطى حثيثة. علينا أن نثق بمستقبلنا، كما يثق الجمهور الجزائري هنا في لاعبيه. أضحك وحدي كمجنون. أضحك حتّى تُؤلمني أمعائي، وأختنق من جديد ببكاء شديد.

لا أدري لماذا أنا حزين هكذا؟ هل كنتُ أنتظر شيئًا مختلفًا من هذه الانتخابات؟ هل الوجوه المنافسة أصلًا تستحقّ أن أرشّحها، أو أتمنّى أن أراها تقود تونس. عهد جديد للعبيد، يا مختار اليحياوي.

28 أكتوبر

لم تكن لي صورة وأنا طفل، أوّل وآخر صورة لي كنتُ في السابعة، ربّما كنتُ في الثامنة أو العاشرة، لستُ أدري. كانت تُظهر جانبًا من وجهي، كما تلك الصور التي تُؤخَذ للمتّهمين في مراكز الشرطة الفنّيّة. هكذا وُلدتُ في الصور مُشتبهًا به.

منذ تلك الصورة إلى الآن مازلتُ أرى الحزن الغريب في عينَيّ. حتّى إنني أصبحتُ أبتسم طوال الوقت بسبب وبلا سبب. الشيء الوحيد الذي يخفي حزني ذاك، هو ابتسامتي. اليوم أحسستُ بالخطر عندما اكتشفتُ سُوسًا ضرب ضرسي.

كيف أستر حزني، لو تساقطتْ أسناني؟! كيف أنجو من الأنياب التي تترصّد ضعفي؟ ابتسامتي سرّ قوّتي. أحاول أن أضحك بقوّة في وجه المرآة يطلّ الضرس اللعين، يطلّ يسار الوجه بالمرآة. إن نزعتُهُ، سيظهر ثقب أسود كلّما ابتسمتُ. ثقبٌ أسود كما حياتي الآن تمامًا؛ شباك [illegible] لحارس مَرمى ميت.

بحثتُ منذ قليل عن تلك الصورة وأنا صغير. كنتُ نحيلًا [illegible] كفيرناندو بيسوا. لم أكن ذا شأن. لكنني كنتُ قتلتُ الكثير من [illegible] والصراصير، ورشقتُ جيراني بالحجارة وهم يتبرّزون في الوادي. [illegible] أنا الآن أنني سأكتب يومًا عن وادي البراز ذاك.

2 نوفمبر

هذا المساء أطلَّ عليّ الشاعر بوزيد حرز الله والشاعر عادل صيّاد. شاعران مثل صديقَيْن في فيلم للوستارن. يركضان بسيّارة قديمة. سمعا بوجودي هنا بالجزائر، فجاءا يتعرّفان عليّ. نعرف بعضنا عبر الصور أو النصوص، لكنني لم ألتقِ بهما قطّ. ذهبتُ معهما إلى زيرالدا. كنتُ منشغلاً تمامًا بموضوع السَّكَن، وكان بي صداع نصفي كبير، فقد قضيت الليل كلّه أراجع المخطوطات المترجمة لقصص وأساطير من العالم. روى علينا بوزيد الكثير من الطرائف. كنتُ أضّحك من حلقي فقط. مجاملة لحضورهما الجميل وهما يتنابزان، ويسترجعان ذكريات، جمعتهما ببعض الكتّاب العرب. قدّمتْ لنا النادلة قناني البيرة التانغو.شربتُ 4 بيرات، ازداد الصداع، ولم ينقصْ. انتبه بوزيد إلى حزني، فسألني:

ربك راك صغير شنوا ها التريستاس والكبي ديالك؟

رويتُ له المشكل، وأنني منذ شهر أبحث عن شقّة بلا جدوى مع أنني أملك المال، لكن أزمة السَّكَن كبيرة بالعاصمة. فردّ بلا تفكير:

هذا بروبلام؟ نرجع بك للبيت نستناك. هات ساكك وهيا معايا. أسكن حتّى تفد من أم ها البلاد وتروح. وما تدي والو. راني وحدي.

ضحكتُ. طار الصداع فجأة. طلبتُ بيرة أخرى. بدت لي هذه المرّة

الادلة تُشبه مديحة كامل. أعلم جيّدًا أنني لن أقبلَ أن أس[illegible] بوزيد. إيقاع حياته مختلف تمامًا عن إيقاع موظّف في مؤسّسة دولة. هارب من واقع تونسيّ بائس، منعه من العمل، ودفعه إلى إضراب جوع وحشي. وتنتظره الآن في تونس التزامات، وديون عليه أن يحافظ من أجلها على عمله هنا، مهما كان بائسا.

توقّعتُ أن (بوزيد) يعيش حياة شاعر "بايعها بلفتة" كما نقول بتونس. لذلك لا يمكن أن أكون ثقيلاً عليه بإيقاعي الانضابطي التعس. لكنني شعرتُ براحة كبرى بمُجرّد أن عرفتُ أشخاصًا مثل (بوزيد) وعادل، فهما طيّبان جريئان، لا يعيران هذا الجوّ العسكريّ على الوهابي اهتمامًا. يعيشان طليقَيْن، يشتمان الجميع دون حقد "باعثين الحياة تقوّد".

منذ عدتُ من السهرة، هجرني النوم، فجلستُ أكتب هذه اليومية. أشعر بشيء من السعادة. هذا البلد البارد الذي استقبلني بكلّ فجاجة دون أن يحترم حتّى حزني وجرحي الذي جعلني ألوذ به، تنبت له بعد شهر قلوب دافئة. هنا في العاصمة بوزيد وعادل صيّاد، وهناك في سعيدة حبيب السائح: قلوب الجزائر.

3 نوفمبر

وقّعتُ اليوم عقد كراء الشّقّة. في الأبيار. شقّة؟ كم أنا أبالغ. غرفة. غرفة واحدة في الطابق الثاني تحت الأرض. كان يجب أن أجدَ مأوى. تلميحات التهديدات بالطَّرْد من العمل بدأتْ تظهر. زميلتي أيضًا وجدتْ شقّة مع صديقة لها.

المنطقة من أهمّ بلديات العاصمة. بجانب سفارة اليونان. مكان جميل، وبجانبه حديقة، اسمها حديقة تونس. أمورٌ أسقطتني في هوى تلك الشّقّة رغم غرابتها. تذكّرتُ ذلك الفأر الذي قتلتُهُ من أيّام وأنا أدخلها. أبدو الآن أُشبهه أكثر في هذا الجحر.

دفعتُ أموالًا كثيرة للمالك وللسمسار أيضًا. تبًا لهما. لكنني الآن أستلقي في بيتي على هذه المرتبة الهوائية التي تركها المالك. قال إن الشقة لابنه الذي يعيش في فرنسا، والذي يأتي في الصيف فقط. لا أدري لماذا يأتي في الصيف إلى الجزائر، وكلّ شيء يصبح جحيميًا هنا، فحتّى الشواطئ ممنوعة. هل يعود من فرنسا ليذهب من هنا إلى تونس؟ لم أهتمّ كثيرًا بشأنه. المهمّ أنني سأستمرّ في العمل. بعد أيّام، سأقتطع تذكرة طائرة، وأعود لتونس، لأرى هارون، وأدفع بعض القروض. قبل ذلك عليّ غدًا أن أشتري مرتبة، فهذه فقدت الهواء، وليس لي مضخّة. كما أن شكلها

يُزعجني. كان يمكن أن أُكمل الليلة في الشّقّة الأخرى، لكنني اردت أن أنام

منها ومن ذلك الفانوس التعس فوق رأسي. من حسن حظّي أن الفوانيس

هنا في أعلى الجدار، وليس في السقف. تحتاج غرفتي إلى تدوينة كاملة

لوصفها. سأعود إليه. غدا أشتري مرتبة وبيرة جديدة.

4 نوفمبر

لديّ رغبة في شتم الكائنات كلّها في هذا العالم. مُحبَط مثل سلحفاة مقلوبة على ظهرها في طريق سريعة أوقات الذروة.

نزلتُ أتمشّى صباحًا في حديقة تونس. وجدتُها مغلقة. الساعة السابعة والنصف. حديقة تونس أقرب متنفّس لي. هي حديقة، لكنها غير آمنة، يمكن أن يُباغتَك أيّ شيء: مجنون مجرم، أو لصّ متطرّف. كنتُ هناك منذ يومَيْن عندما صرختْ امرأة من بعيد. هُرعنا نحوها. كانت ترتجف. اختطف الشّابّ حقيبة يدها، وقفز مثل الكونجورو. حدائق العرب عجيبة، فخلافًا للحدائق العائلية الأوروبية، أنتَ في الحديقة العربية مشبوهٌ من قِبَل الموجودين، ومن الدَّرَك، لذلك عليكَ أن تستظهر بأوراقكَ طوال الوقت. ذكّرتْني حديقة تونس هنا بحديقة "الباساج". الباساج حديقة كبيرة بأشجار كثيرة، وعشب كثيب، كان يمكن أن تكون متنفّسًا قويًا. العاصمة سقطت في أيدي المجرمين واللصوص وتجّار الدعارة والقوّادين. لا يجرؤ على دخولها إلا مشبوه أو غريب.

حديقة تونس هنا أيضًا مُوصَدة في وجهي هذا الصباح، وترفض حتّى أن أدخلها. شعرتُ أن تونس أيضًا أوصدتْ أبوابها خلفي عندما رمتْني هنا. هذا الصباح ذرفتُ دمعي على سور الحديقة، وأنا أفتح اللاب توب

الصغير، أتأمّل في صور هارون. صوره وهو يعانق دبدوبه الصغير، وهو يتكلّم في الموبايل، وهو يجلس في العشب قريبًا من الملعب الألمبي.

مازلتُ كما أنا سلحفاة مقلوبة على ظهرها. نَجَتْ من عجلات السّيّارات، لكنها لم تنجُ من ظلام هذا الليل، وهذه الأنوف التي تطلّ عليها تتشمّمها من كلّ صوب.

5 نوفمبر

وقفتُ طويلًا أمام صندوق بريديّ في بهو العمارة. ثَبَّتُّ عليه البارحة بطاقة، كتبتُ عليها اسمي ولقبي. كان الصندوق مدمّرًا بالكامل. بطنه في ظهره. لا شيء حدث لبقية الصناديق العشرين من حوله. ماهذا الاستقبال؟! قلتُ لنفسي.

لم أسمع شيئا ممّا كان يهذي به حارس العمارة بجانبي. كنتُ فقط أشاهد الصندوق. بقية الحواسّ تعطّلتْ. رفعتُ الورقة التي عليها اسمي، كانت مرمية تحت على الأرض. وضعتُ الاسم في جيبي، وغادرتُ.

قضيتُ المساء في "زيرالدا" أشرب البيرة. وأكتب. لم أترك ممّا كتبتُه الآن إلا ثلاثة أسطر. لا شيء نهائي، لا في الكتابة ولا في الواقع. معاشرة الحبر مثل معاشرة الناس تتغيّر نظرتك نحوهم بالتحديق.

أمور قليلة تلك التي تحافظ على بريقها دائمًا كحبّي لمديحة كامل. مهما تقدّم بي العمر، مازلتُ أرى مديحة كامل الأنثى الكاملة. أغلب مَنْ أحببتُ كان فيهنّ بعض من مديحة كامل، ومتى اختفى ذلك الشبه، أجد نفسي غريبا عنهنّ. اليوم رأيتُ امرأة تُشبهها. عيناها تسبحان في دمعة لذيذة، كما مديحة كامل تمامًا.

منذ أيّام، رأيت مديحة كامل أخرى في حيدرة. الصديقة الجزائرية

التي كانت معي، ضحكتُ في البداية، ثمّ غضبتُ، لأنني مازلتُ أهتمّ بالمصريّيْن، وبثقافتهم ونسائهم، والحرب دائرة بينهم، وعندما تابعت تهكّمي وغزلي بمديحة كامل التي كانت تجلس أمامنا.

اليوم كنتُ وحدي في زيرالدا، وكانت مديحة كامل تقدّم لي التانغو. قلتُ في نفسي لو التقط الجزائريون هذا الشبه، لانتهت الحرب. مديحة كامل بدموعها الأسطورية، وخدّيها العالييْن، وابتسامتها "المارلان مورية" تسقي هذه الذُّكُورة الخشنة كلّها تانغو.

وأنا أعود قبل ساعة. تذكّرتُ صندوق بريدي. لم أفتح الضوء في الرواق. لم أردْ أن أراه. كانت مديحة كامل تصحبني سيطير بها الخوف. قلتُ لنفسي وأنا أنزل الدرج في الظلام. دخلتُ الشّقّة. مسكتْها من يديْها، ورحتْ أرقص أرقص حتّى طارت الثملة، وطارت مديحة كامل، فقمتُ أكتب.

6 نوفمبر

كم أكره هذا الشهر. الكوارث كلّها تبدأ منه. نوفمبر مرتبط في ذاكرتي بالخسران. أعتقد أنني خسرتُ كلّ شيء في نوفمبر. وأعتقد أن عليّ أن أقضيه سكرانًا، كي لا أشعر بثقله. هكذا قلتُ مع أوّل صباح من دخوله. تذكّرتُ عبارة بودلير يومها وهو يصرخ في سأمه الباريسي: "لا بدّ للمرء أن يكون سكرانًا دائمًا. تلك هي الخلاصة: تلك هي القضية الوحيدة. فلكي لا تشعر بعبء الزمن الفادح الذي يحطّم كواهلكم، ويحنيكم إلى التراب. لا بدّ لكم من أن تسكروا بلا هوادة. ولكنْ، بماذا؟ بالخمر أو بالشعر أو بالفضيلة، بحسب ما تهوون. ولكنْ، اسكروا."

أعتقد أن بودلير كان يقصد نوفمبر عندما كتب هذا الكلام. لا أكره نوفمبر لأنه كان تاريخ انقلاب على بورقيبة. لا، فأنا عندما حدث الانقلاب الأبيض لم أكن أحبّ بورقيبة. كنتُ أعبر بصعوبة فترة الطفولة، ولم يكن بالنسبة لي شخص مهم اسمه بورقيبة، ولا أعرف تاريخه. فقط كنتُ أرى شيخًا ضعيفًا يسبح مثل ضفدع في حوض الاستحمام في نشرة الأخبار، وكنتُ أضحك. كان أبي ينهرني كلّما ضحكتُ. تمنّيتُ زوال ذلك الشيخ الذي سبّب لي الضحك والشتم. كان أبي متعلّقًا ببورقيبة، وظلّ طوال السنوات يحدّثنا عن إنجازاته، خاصّة خطابه بالقرية عندما جاء ينشر فكر المقاومة زمن الاستعمار. كان أبي وقتها طفلاً في عمري. وقد اختار بورقيبة

أن يخطب فيهم في فندق الدوابّ. ضحكتُ طويلاً وأنا أقول لأبي إن بورقيبة خطب فيكم، وفي الدوابّ. انتبه فجأة أبي إلى الصورة التي لم يفكّر فيها قط، وأمطرني شتائم، ورماني بعصاه القصيرة. وظللتُ أكره ذلك الضفدع العجوز الذي يظهر في الأخبار، وقبل الأخبار يوجّه الشعب. فتوجيهات الرئيس كانت تتعدّى الحديث السياسي، وكانت أمّي تجلس إلى التلفاز الصغير بالأبيض والأسود، لتستمع إلى رجل أقلّ سنًا من ذلك الضفدع الذي سيظهر في الأخبار بعد قليل، وتقول إنه هو نفسه بورقيبة، ويتحسّرون على زمنه. كان يهذي في كلّ شيء حتّى في إعداد الطعام. وأصبح الوضع مملاً، ولم يكن هناك خمر، ولكنْ، كان هناك شعْر ؛ شعْر أخي الأكبر الذي أُغرمتُ بإلقائه. حتّى حدث الانقلاب. كان أبي الوحيد في البيت الذي شعر بالغمّ عندما طلع علينا زين العابدين بن عليّ معلنًا نهاية بورقيبة. قرأ بيان السابع من نوفمبر، وأعلن الاستغناء عن اللاعب رقْم 10 هدّاف الفريق؛ سيّد الأوقات التلفزيونية كلّها. فأبي لا يكاد يشاهد من التلفزيون إلا توجيهات الرئيس، والأخبار التي تتحدّث عن الرئيس، ومسلسل الصور المتحرّكة بل وسيباستيان. سقط أبي في الكآبة وهو يشاهد الشعب ينزل مهلّلاً للرئيس الجديد. كنتُ أرقص في غفلة منه في الغرفة الأخرى، ثمّ أدخل عليه متصنّعًا الحزن. لكنني ظللتُ مدّة طويلة كلّما أردتُ التعبير عن فرحي، أصرخ:" يحيا بورقيبة، يحيا بورقيبة YAH YA BOURGUIBA بذلك التقطيع اللاتيني.

ليس هذا وحده ما جعلني أكره نوفمبر، إنما لأنه شهر بلا فائدة، لا يصلح إلا للانقلابات. شهر انقلابي. حبيباتي كلّهنّ خسرتهنّ في نوفمبر. كان مُجرّد قدومه يُثقل قلبي. في شهر نوفمبر من ذلك العام، قطفوا لي جلدتي، لأدخل الإسلام، وكأني لو بقيتُ بجلدتي، سأبقى خارجه، أو أنهم بذلك ضمنوا دخولي العظيم. في شهر نوفمبر من كلّ عام، كانت تظهر لي

ثوب الشباب، وفي شهر نوفمبر، ضربتُ قَدَمي بسيف صدئ، ودخلتُ المستشفى وتلقّيتُ على امتداد شهر 24 حقنة.

مازلتُ أشعر بقرف هذا الشهر القميء. المشكل أن البيرة الجزائرية لا تجعلني أنسى. لا أدري رغم الشعبية الكبيرة لبيرة الـ Tango لم أطقْ طعمها. لفتتْ انتباهي لعشقي للتانغو، فاشتريتُ منها الكثير، وهكذا تورّطتُ في تلك المؤونة التي عليّ الإجهاز عليها، ونوفمبر لا يُحتمَل. هاتفتُ مرّة نسيمة التي نصحتْني بها. أريد أن تأخذيني إلى مصنع الـ Tango فاستغربتْ ضاحكة.

- أريد أن أكسرَ ما بقي لي منها على رأس مدير المصنع. كيف تتحمّلون هذا الخراء؟

- غريبٌ أمركَ. هذه البيرة الأكثر شعبية. يحبّها الجزائريون. إنها الهاينيكان الجزائرية.

- أريد الهاينيكان، ابحثي عمّنْ يأخذ هذا الخراء الوطني، ويعطيني هاينيكان.

- آخذها أنا مقابل نصف الهاي. نيكان. ما رأيكَ؟

قالتْ وهي تقطع كلمة الهاينكان بقحبها كالعادة. شعرتُ أنني تورّطتُ: تعالي. قلتُ. كانت ليلة نوفمبرية كافكاوية كاملة؛ شرب التانغو مع امرأة بلا مؤخّرة، تحاول أن ترقص التانغو.

عندما خرجتْ نسيمة، وجدتني أرقص مرحًا، كما كنتُ أختبئ عن أبي، وأرقص فرحًا بعرْل بورقيبة. كانت نسيمة بجسدها الهزيل تشبه بورقيبة في المسبح. ربّما كانت بيرة التانغو ما يُشعرني بذلك.

اليوم ومع القنينة التاسعة من التانغو، صارت نسيمة ألذّ قليلًا، ولم تعد تتشنّج أمام النافذة. صار جسدها أكثر مرونةً، وصارت تتلوّى، ولو بشكل مضحك كراقصة ستربتيز مبتدئة. طلبتُ منها أن تنام هنا. الآن هي هناك ملتفّة في الغطاء قبالة كرتونة التلفزيون الصغير الذي وضعتُ عليه التلفزيون، تشاهد برنامجًا رياضيًا، يعرض استعدادات الفريق الوطني لكرة القَدَم، بينما أجلس أنا هنا على كرسي قبالة الحمّام أكتب. أُفكّر في أن أعودَ لمضاجعتها، لكنني لا أشعربرغبة في ذلك. سيكون مُجرّد جهد عضلي بلا طعم أن تضاجع امرأة كانت تتابع برنامجًا رياضيًا.

أرجو أن تنام قبل أن أُغلق هذا الدفتر.

7 نوفمبر

في الحافلة

آآآآآآآآآآلو آآآآآآآآآآآآآآآآآآلو.اش بيكي يا مرا نعيطلك عندي برّاف؟راهي مغلوقة ... مغلوقة قاااع.أنا نقلييييييييك مغلوقة.ما صبتش ولا قدمه... خلاصْ دوكا ناكلو حتّى لحجر. منين ندّيلك لْخبز. ما تكسّريليش راسي. راني عيّان قاع. ديري طعامْ وفلك على يمّه. ديري من غير لْحم. ماكا نش دراهم. آآآآآآآآآآلو آآآآآآآآآآآآآآآآآآلو عيطيلي إنت راح الريزو.

- يغلق الخطّ. يكلّم الهاتف: روحي نعل يمّاك..

خويا اسمحلي كسّرتلك راسك النسا كاااارثه. يكلم المسافر الذي بجانبه.

Non موشي مشكل.

- لازمني نلحقْ نجيب الطفل م ليكول والدنيا قاع مغلوقه.

- واش من ليكول يا حبيبي؟ الي قراو ماتو.

- قلت لْحقْ يا لخو.والله حبيت نبطّلو وندخلو في كاراج..

- لا قرايه ولا والو أنَا ما كسّرتش راسي قاع وصبت خدمه والحمد لله راهم في الشوماج ولاّ لا لا؟

- أنا دشيريتو الديبلوم متاعي. طلعتلي حبة في راسي قطّعتو.

- الله يبارك.

- شوف شوف ها الكلبة شوف اش لابسه اللي يجي ينيك.

- الله يسترنا علامات الآآآآآآآآآآآآآخرة. ربي يحرقها بالنار.

- أنا في راسي شاهي نعمل عمره يا خويا نغسل عظامي. راني نلم في شوية دراهم.

- تمشي لبلاد الكفّار؟!!

- بلاد ربي يا خويا ما تجهلش فيها قبر الرسول.

- فيها لماريكان. أخطيك يا رجل حج في دارك. لماريكان يخيطو فيها. لا يجوز يقولو العلماء.

- مالا تقول نمسحها من راسي.

- امسح. لا يجوز أنا نقولك لا يجوز.

- آلو ...آآآآآآآآآآآآآآلو ها خديجة راك مليحه شوية؟ روحي اشتري لحم وديري الطعام. ما نيش مروّح لهيك راني جايك إنتِ.

8 نوفمبر

أسافر اليوم إلى الإمارات للمشاركة في ندوة جائزة البوكر. سأحاول أن أركّز في روايتي. سأحاول أن أنسى هذا المكان، وذلك المكان. علمتُ أننا سنكون في جزيرة سير بني ياس في عزلة تامّة للكتابة. كم أنا في حاجة إلى

ذلك. سمعتُ أن هناك محمية لحيوانات مفترسة. كم سيكون الأمر رائعًا لو افترستْنا تلك الوحوش. ربمّا سيظهر كاتب آخر، ويكتب قصّة الواقعة. يبدو أن مزاجي الغوريليّ بدأ ينحرف أكثر. عليّ أن أتفقّد الحقيبة. فرشاة الأسنان. البوكسر. الفانيلات. الواقي الذَّكَري. علبتان! يكفي. الاحتياط واجب. أضفتُ الثالثة.

18 نوفمبر

اليوم يومٌ كارثيٌّ. حرب اندلعت في أمّ درمان. سكاكين تلمع في الظلام. صراخ لا ينتهي من السودان إلى القاهرة إلى الجزائر. الكلّ يعوي. الكلّ مسعور. كأنما ذُرّ على الشعوب الجنونُ، فخرجوا يحطّمون كلّ شيء. أعداء العشب وقود حرب إعلامية في القنوات الخاصّة والرسمية. انهزمت مصر أمام الجزائر. وبدأت الحرب من جديد.

أتابع هنا ما يحدث من غرفتي بالفندق بأبي ظبي. أعود بعد قليل إلى الجزائر. قضيتُ أيامًا هنا في ورشة جائزة البوكر التي جمعتْني بعدد من الكتّاب العرب والأجانب.

اشتغلتُ على مخطوط روايتي "الغوريلا". بدوتُ غريبًا بعض الشيء. منعزلًا وغاضبًا في أثناء النقاشات. لكن الغريب أنني كنتُ ألوذ بصديقي السوداني منصور الصويم الذي كان أهدأ الجميع. أجرى معي حوارًا لجريدة سودانية، سمّاني "البركان التونسي". منصور كان يشتغل على مخطوط روايته "فرنساوي" ومنشغلًا بالبحث عن الحشيش طوال الوقت. اختفى منذ يومَيْن، وعاد بالحشيش. السودانيون يستطسعون خلق الحشيش، ولو في مكّة.

مرّت الأيّام العشرة لرَقْم 10 بسرعة، قضيْنا أغلبها في جزيرة سير بني

حالة من الذعر، يتحرّكون في كلّ مكان. أخبروني وقتها أن الوضع توتّر جدًّا، وأن العمّال المصريّين يغادرون التراب الجزائري خوفًا على حياتهم.

الكلّ في المطار يتحدّث بتوتّر عن تصريحات الصحفي الفلاني والفنّان الفلاني والعلاقة بين الشعبَيْن الجزائري والمصري وصلت أقصاها. والصحف بعناوين مرعبة، تدقّ طبول حرب قادمة. كنتُ أقرأ وأرثي لهذا الشعب العربي الكبير الذي يتقاذفُهُ بعض الإعلاميّيْن التافهين من الجانبَيْن.

20 نوفمبر

02:00 ليلًا

الآن وصلتْ. دخلتْ تاكسي، وسُمح لنا بالخروج من المطار. طلب مبلغًا مهولًا. قبلتُ. لا يمكن أن أبيت في المطار مرّة أخرى بعد تلك السفرة الطويلة. وجدتُ أنني قضيتُ أكثر 48 ساعة في مطارات العالم منذ خرجتُ من غرفة الفندق بأبي ظبي؟

ما يحزنني الليلة أن المرأة الأمازيغية الجميلة التي واعدتُها البارحة لم تأتِ. كانت بمؤخّرة معقولة حسب الصور التي وصلتْني. تعرّفتُ عليها قبل سفري إلى الإمارات بقليل. اعتذرتْ منذ قليل على المجيء، فالوضع في الشارع لن يسمحَ لها بالخروج. كاتبتْني على الفايس بوك. قالت إن هدف عنتر يحي ينيك في المخّ. فأجبتُها غاضبًا بعد أن يئستُ من مجيئها: عنتر يحي يرسلكم إلى المونديال، وأنا أرسل إلى الجحيم. كس أمّكْ وكس أمّ الكرة والمونديال. فأغلقتْ في وجهي الهاتف، وأنهت المكالمة. الكرة المقدّسة؛ الصلاة الجزائرية السادسة.

جلستُ أنظر إلى ذَكَري نصف النائم، وألتهم الشوكولاطة التي من المفروض أنني أتيتُ بها هدية لتلك التي ناك مخّها عنتر يحي.

"أرقد نيك. لا شيء الليلة. لا شيء." قلتُ لذَكَري الذي بدأ يتراجع

تدريجيًا ككلب. أرقد. قلتْ. الجزائر في المونديال. الفروج كلّها في المونديال.

- لا أدري لماذا أنت غاضب منها؟ الوضع فعلًا غير آمن؟ قال لي ذكَري نصف النائم.

- لا، الوضع غير آمن، صحيح، لكنْ، أيّ موضوع أهمّ من المضاجعة؟!

- يكفي، لقد جعلتَني أسهر دون فائدة. لو تركتَها للغد. لكنّ لسانكَ. اللعنة، لقد ضيَّعتَها.

- لا، هذه المرأة لا تصلح. ليست مُغامِرَة بما يكفي. فقط ترسل صور لطيزها ونهدَيْها. واضح.

- كم أنتَ مُتسرّع! ستُجوِّعني، أيّها اللسان النتن.

- أنتَ فعلًا تافه. ليتَني في مكانكَ. برغم كلّ ما قدّمته لكَ، لم تتعلّم شيئًا.

- هل كنتِ تنيكهنّ بدلًا عنّي؟ أش فهمكْ أنت بالنساء وبالفروج.

- عليكَ أن تنام. لتمتلئ بَولًا. أمّا أنا، فعلي ألا أعوّل على هذه الكائنات. المرأة التي ترسل صورها كلّ لحظة هي امرأة لا تفكّر بالنيك. تعلم.

- تعلّم أنتَ كيف تخاطب امرأة رقيقة آخر الليل تعتذر لكَ.كان يمكن أن تأتي إليك، لو تكلّمتَ برقّة.

- المرأة التي تريدكَ، أيّها السخيف، تطرق عليكَ الباب دون علمكَ. تصل إليك قبل وصولكَ.

- لكنْ، وعدتْ أنها ستأتي. كان يجب أن تتريّث.

- لا تصدِّقْ أيّها الأحمق امرأة تواعدكَ حتّى تقفَ أمامكَ عند النافذة، وتدفع بمؤخّرتها إليكَ.

- انتبهتُ أنني أكلّم ذكري كالمجنون. لو بقيتُ شهرًا آخر في هذا البلد قد أُجنّ. لا أريد أن أفتحَ التلفزيون. سينهال عليّ بالشتائم. سأرى الجماهير تركض وراء بعضها بالسكاكين. أعتقد أن الشعوب التي تُشهر السكاكين في وجوه بعضها هي شعوب لم تشبع من النيك.

عليّ أن أتوقّف عن هذا الهراء، سأدفن رأسي تحت هذه الوسادة. أشعر أن الصداع النصفي قد أهلَكَني منذ كنتُ في المطار، وكنتُ أمنّي النفس بنيكة جيّدة. جرّبتُ منذ سنوات النيك كمزيل للصداع. يدفع بالدماء إلى الرأس، فينسحب الصداع. لا نيك الليلة. لا أمل.

وان. تو. ثري. فيفا. لالجيغي

21 نوفمبر

07.41

طاخ طاخ. كانت على الباب.

وأنا أفتح بذَكَر نائم، دفعتْني:

تشتم البارح؟ ما تمنش أن البلاد مغلوقة؟ كارثة البارح كارثة.

- اش صار نمت.

دخلتْ ترفس الأرض بحذائها الطويل. قلتُ له: قمْ، قمْ، اللعنةُ عليكَ. لا أريد أن يراكَ أحد في هذا الوضع. التقطتُ قنّينة تانغو على الخواء. ووقفتُ بعيدًا. أنظر إليها.

- الحيوان شوبير استضاف المنيوك المغني الأرعن حكيم قال الشعب الجزائري بربر والجزائر "بلد المليون لقيط ". والبلاد نار الآن.

- طيّب. أنا لا أفهم جيّدًا في الأنساب. لكنْ، يبدو لي أنه يبالغ قليلاً.

- يبالغ. أنت شنوا الي تقولو راك يقطعوك هنا.

- أنا لا يعنيني من أمركم شيء. قلتُ إنكما شعبان مصابان بلوثة.

- لوثة يماك. نحن ندافعوا عن شرف بلادنا موش كيفكم التوانسة ماعندكم والو. ماكانش حركة وطنية، ولا ثورة باش يكون عندكم شهداء.

- لكنْ، نحن عندنا شهداء بالمئات!

- نحن مليون. مليون تفهم؟ يا التونسي، شنوا معنى مليون ونصف شهيد؟

- والنتيجة؟ قلتُ ببرود.

- نتيجة شنوا تره؟

- أنتُم خرّجتُم فرنسا، ونحن خرّجناها. أنتم فهمتو الوطنية بالراس، ونحن عرفنا أن الوطنية بما داخل الرأس، بالمخّ يعني، لذلك سقط منّا أقلّ. هاهاها؟

- راك تستهزأ من شهداء ديالنا زادة أنت؟

- راني نستهزأ من رؤوسكم أنتم الأحياء. اتركوا الشهداء ينامون في سلام، ولا تجعلوهم شمّاعة لتخلّفكم كلّ مرّة. مَنْ هذا الحكيم السخيف الذي يهزّكم هكذا؟ مُجرّد مغنّي كاباريهات، جعلتُم منه حكيمًا حقيقيًا. فكي على أمّي من عفنكم رأسي يوجع من السفر عفتك وعفت أم الوطنية متاع العرب كلّها. راكم في الخرا غاطسين. حاسه ولا لا؟ قلتُها بجزائرية مكسّرة.

- زعفت؟ وين الشوكولاطة؟ ضحكتْ وهي تداري فمها بكفّها. راس عصبانة كيف تزعف.

- كنتُ أعرف أنكِ ستأتين صباحًا. تعمّدتُ أن أشتمَ فرج أمّكِ، لكي تغاري.

- أغار؟ كيف؟

- الفرج اللذيذ فقط هو منْ يُشتم.

- هل تشرب البيرة صباحًا؟ تبدو نائمًا.

- لا. لستُ أنا منْ يشرب.

- مَنْ، إذنْ، هذا الذي يعبّ التانغو أمامي؟

-عنتر يحي. قلتُ مبتسمًا، وأشرتُ إلى ذَكَري.

- وأعر؟سألتْ بغنج.

- وداعر بالزاف، شكري لواعر نفسه.

25 نوفمبر

تقدّمتُ اليوم جيّدًا في روايتي الغوريلا. قلّبتُ فيها أمورًا شتّى. كتبتُ فصلًا عن شاكيرا؛ الشّابّ المِثْليّ الذي يسقط في أيدي مجموعة من المتطرّفين والمقاتلين في الجبال. تضعك تقْنيّة تعدّد الأصوات في مآزق شتّى وأنتَ تكتب الرواية. عليكَ أن تنطق ساعة بلسان أحمق، ومرّة بلسان عالم، ومرّة بلسان امرأة، ومرّة بلسان طفل اليوم، وضعتْني الرواية في مأزق كبير كيف سأروي بلسان مِثْليّ؟ كيف سأُقنع؟ ما الذي يتوجّب عليّ أن أفعل لكي أُقنع؟ أن تُقنع في الحديث على لسان الشخصية؟ قبل أن آتي إلى الجزائر كنتُ حاولت إلى جانب البحث أن أراقب تحرّكات المِثْليّيْن في تونس، لكني لم أستطع أن أخترقَ عالمهم، قيل لي إنهم يتحرّكون بحذر مثل جماعات الماسونية، أو الجماعات الدِّينية؛ "ساكت". محيطي الدراسي سابقًا عرّفني ببعض المِثْليّيْن، ولكن معرفتهم تلك، والتي لا أذكر منها إلا سخريتنا منهم، وتحرّشنا بهم. لم تكن تلك المعرفة تكفي. نصحني صديق أن أتوجّه إلى شارع محمّد الخامس عند المساء، فهناك يجتمعون. وفعلًا وجدتُهم. عرفتُهم من تسريحات الشعر الغريبة، وأساور الجِلْد في معاصمهم وكلامهم ولباسهم، وخاصّة بناطيلهم الضّيّقة، ومشياتهم. ذلك كلّه كان لا يكفي. لاحظتُ أيضًا أن الشباب الصغير منهم شديد النحافة، والذي أذهلني هو أن الرأسمال العضوي بأحجام غير متوقّعة، فعجيزاتهم صغيرة جدًا، تكاد لا تُرى. أمّا الجيل الكبير منهم، فكانوا عاديّيْن، وبعضهم كان

بدينا. لا أدري إن كانت أزمة مؤخرات النساء بالجزائر هي التي ألحّت عليّ كتابة شاكيرا. وقد اخترتُ للشخصية اسم شاكيرا عن قصد في محاولة لرثاء الغائب. لا يبدو ذلك، فقد رمت ملامحها قبل مجيئي من تونس. انشغلتُ لوقت بقراءة كتاب "موجز تاريخ الأرداف لجان ليك هينيج". كان كتابًا أدبيًا رائعًا. لكنه لم يحلّ المشكلة. كان يجب أن أحمل ذهني إلى منطقة أخرى لتخيّل سيرة لهذا الشاكيرا. كانت بيرة التانجو بمرارتها تستدرج صوت شاكيرا من زاوية مظلمة من الخيال، بدأتُ أنسجها خيطًا خيطًا.

قلتُ إنني تقدّمتُ جيّدًا في الرواية، وأعتقد أنني سأُنهيها في شهر ماي، لو واصلتُ بالإيقاع نفسه. هذه النسخة الرابعة التي أراجعها من الرواية، وأُعيد بناءها من جديد. مُوَسْوَسٌ أنا طوال الوقت بالشكل الذي ستظهر به الرواية، وخاصّة مَنْ الذي يتكلّم. فقد اخترتُ أن يظهر الراوي العليم مثل الكومبارس في الأفلام، ومثل ما يظهر هيتشكوك وتارانتينو في أفلامهما، مُجرّد توقيعات. وأُطلق ألسنة الشخصيات، لتقول هي الحكاية، وهذا يمثّل مشكلًا كبيرًا. لعنتُ كثيرًا فوكنر وأنا أُعيد الكتاب، وأطبخ الطبخة مرّة أخرى.

انتبهتُ الآن أنني لم أطبخ شيئًا اليوم، فقط فتحتُ علبة تونة، ووضعتُ بعض الهريسة التونسية التي أتيتُ بها من تونس. أن يتوقّف تونسي عن أكل الهريسة لمدّة أسبوع قد يُصاب بالجنون. كنتُ منشغلًا بالكتابة وتخيُّل المواقف. عندما أنهيتُ الفصل كانت على الطاولة 11 قنّينة فارغة من التانجو. ورائحة خفيفة للتونة كانت في الصحن.

وصلتني منذ ساعة رسالة، فيها تحية، وسؤال يستدرجني للحوار. بدا لي أنها من امرأة، لكنني لم أردّ. قلتُ عليّ أن أواصل التركيز بالرواية. الكتابة تُشبعني جنسيًا أيضًا. هناك حاجة ماسّة للجنس تجتاحني كلّما

توقفتُ عن الكتابة، وتذهب بمُجرّد أن يركض القلم. منذ مدّة لم أعد أستعمل القلم في الكتابة. ظلّ مُجرّد استعارة. لا أكتب به إلا مسوّدات، أنقلها بسرعة. فقط هذه اليوميّات، أشعر أن الكتابة في الدفتر تُريحني أكثر. تبدو حميمية أكثر، وتتناغم مع فكرة الجنس الأدبي نفسه "يوميّات حميمة" أو خاصّة. تستوجب أن أُداريها عن الأنظار. لا أدري هل ستظهر يومًا؟ ماذا سيحدث لو ظهرتْ؟ أين سأكون؟ كيف ستكون علاقاتي بهذا المكان وهؤلاء الناس الذين يتربّعون اليوم في حياتي؟ الحياة تتغيّر بسرعة. لم يعد موجودًا في حياتي من أحد مهمّ ممّنْ كانوا مركزًا في حياتي منذ عشرين عامًا. لماذا لن يختفي منْ هم الآن حولي؟

عندي شبه يقين أنني سأكون إنسانًا آخر بأناس آخرين، وأن مَن أحكي عنهم الآن سيتبخّرون. تبدو علاقتي بهم أصلاً علاقة حاجات عَرَضية. وكأننا تائهون في صحراء، نلتقي بلا عقول ولا قلوب، فقط نتبادل بعض الماء والطعام، ونمضي كلّ إلى شأنه، تائهون دون كلام. كلامي مع مَنْ حولي كلام خاصّ. كلام تِقْنِيّ، لا يعيش. لا أشعر أنه سيعيش. ليس فيه عبارة واحدة إلى الآن فكّرتُ فيها. فقط يأكل الكلام، ويغادرني. مُجرّد طعام يتحوّل إلى براز في الصباح.

عندما أنهيتُ مقطع الرواية، حاولتُ أن أعرف صاحب الرَّقْم الذي أرسل إليّ تلك الرسالة. أرسلتُ إليه رسالة، فلم يردّ. يبدو أن عليّ أن أنام. هاروكي موراكامي اللعين صدق في رأيه "إن الكتابة جهد عضلي"، عليّ أن أُغلق الهاتف، لو كانت امرأة، وطلبت مضاجعة في هذا الليل. أشعر أن الكتابة شفطتْ كلَّ ما خزّنتُ من مَنِيّي. مذهلٌ هذا الاكتشاف. نحن نكتب بأعصابنا، وحبرنا مَنِيّي يتدفّق من أعلى الظهر. كان قلمي نائمًا في وضع يائس، نائمًا على جانبه الأيمن كطفل، أنهكَهُ اللعب.

26 نوفمبر

العالم مثل لوحة تصير بشعة وغامضة كلّما اقتربتَ منها، لذلك عليكَ أن تبتعدَ، لترى جيّدًا. بعيدًا عن تونس، وعائدًا من الخليج، وأنا أجوب شوارع الجزائر اتّضحت اللوحة. مشترك هذه الشعوب: الانتظار والحزن. مرارة في الحَلْق. ظاهر الحزن في عيون المصريّيْن واليمنيّيْن، ظاهر الحزن في عيون السودانيّيْن. ظاهر الحزن والانتظار في عيون العراقيّيْن في المنفى، وفي عيون اللبنانيّيْن. لا أحد كان سعيدًا بحقّ في تلك الورشة التي جمعتْني بالكتّاب العرب للكتابة. كنّا نحترق ونتساقط كأسلاك الكهرباء من أعلى الأعمدة، ونرتطم بالأرض. روائح شواء قلوبنا أمكنكَ أن تشمّها على الورق. حتّى السعودي كان حزينًا وهو يستجير بسيرة القندس. حزن أينما وجّهتَ وجهكَ.

الجزائري هنا أكثر من حزين، إنه يائس. لا يقوى على إكمال جملة. يلوذ بالنكات. نكات تراجيدية، اجترحها من العشرية السوداء. يروي النكتة، ويضحك عليها وحده قبل أن ينتظر ردّة فعلكَ. هو يضحك. يضحك لينسى، وربّما ليبكي. لم يعد هناك من أمل. الجزائر الآن مثل امرأة أُنقذت من حريق. أحرقتْ نفسها غضبًا. لكنها اليوم بلا وجه، وبلا مستقبل. كلّ من اعترضها يتحاشاها. لا أحد يريد الحديث عن التغيير.

التغيير يعني التّحرّك، والتّحرّك يعني الذبح. على الجزائري اليوم أن

يُصعِّد غضبه. النظام أيضًا يعلم ذلك، ويعلم حاجة هذا الشعب، ليُعبّر عن غضبه، وحاجته للانتصار، لذلك قدّم النظام الدعم كلّه لهذا الشعب المنهزم والمغدور، لكي يشعر بأيّ انتصار. والنظام يعلم أن مشروعيّته محتاجة لأيّ شعور بالنصر من هذا الشعب الجريح. شعب ذُبح وفُرض عليه الوئام المَدَني. فُرض على المذبوح أن يقف بلا رأس، يُصافح مَنْ قطع رأسه، ويداه مازالتا تقطران بدمه.

- أجلس الليلة متأمّلًا هذا الضجيج الهيستيري عن الكرة. من حسن حظّي أنني كنتُ في هذه المؤسّسة التابعة للجامعة العربية، لأكون على تواصل بين الجهَتَيْن المصري والجزائري. أشعر أن الجميع هنا يعيشون فوبيا أثر هذه الحرب على أوضاعهم.

يروي الجزائري النكات التي تروي المذابح. ويعود إلى بيته، ليتابع من نافذته القَتَلَةَ يتحرّكون في الشارع، وينادونه، لينزل معهم للقتال. قتال الكرة هذه المرّة. أخيرًا نجح النظام في توحيد الشعب، في كراهية أخرى بعيدًا عنه. طاقة هذه الملايين الآن منشغلة كلّها بتصريحات فيفي عبده.

أشعر باختناق، كلّما تأمّلتُ هذا من خلف زجاج غرفتي العازل. ها أني أراهم كلّهم ولا يراني أحد. من تحت غرفة في الطابق الثاني تحت الأرض أراهم.

اليوم سألتُ يوسف الكلونديستان وهو يقلّني من العاصمة إلى بن عكنون: هل تحبّ بوتفليقة، يا يوسف؟

نظر إليّ بارتياب، ثمّ قال : قالها لي صاحبي رد بالك من هاك التونسي يطلع جاسوس.

كانت إجابته قاطعة. السؤال بالنسبة إليه محاولة للإيقاع به. عندما سألتُه ما الذي دفعه إلى ذلك؟ ردّ:

كلّ شيء فيك يقول إنك جاسوس شكلك موش تونسي. انت جزائري. انت مخابرات. لا، لا، أنا ماعندي والو. إيه نعم، نحبّ بوتفليقة كيف ما نحبّ الفريق الوطني.

انفجرتُ ضحكًا.

كان عليّ أن أقدّم له جواز سفري، ليقطع الشكّ.

قبل أن أنزل من السّيّارة، مسكني يوسف من ذراعي:

شيخ كمال، سمعتَ آخر نكتة؟

لا، سمعتْ إلي قبلها.

- ضحك يوسف، وراح يروي:

قالك وحد الخطرة الارهاب لقاو باص تاع المسافرين بداو يخرجو فيهم بالواحد بالواحد. سأل التيروريست :

أنت من وين؟

قال: أنا إسباني.

قال: اقتلوه. وأنت؟

قال: فرنسي.

قال: اقتلوه.

قال: وأنت؟

قال: أمريكي.

قال: اقتلوه. وأنت منين؟

قال: أنا مصري.

قال: ماتقتلوهش، وَرُّوْلُو علم الجزائر وهو يموت وَحْدُو. هاهاهاعاع.

نظرتُ إلى يوسف، وصفقتُ باب السّيّارة، وأنا أغادر، سمعتُ يوسف؛ يا شيخ. دوكا مش مليح. رانا خاوا. تبلحرام جاسوس كما قالولي.

ابتسمتُ وأنا أتابع سيري نحو باب العمارة. لا أدري كيف أُقنع يوسف بأن يأتيني غدًا.

27 نوفمبر

المواطنون كلّهم اليوم يناقشون قصّة حكيم، وما قاله في برنامج الحارس شوبير على قناة المحور " بلد المليون ونصف لقيط". أن يتحوّل معهد للترجمة من مترجم أفكار وأدب وعلوم وفلسفة إلى مناقشة تصريح مغنّي درجة عاشرة مؤشّر سيّئ.

جلستُ في مكتبي، ثمّ خمّنتُ. الأسئلة التافهة كلّها كانت دائمًا مواضيع للتفكير من أعظم الفلاسفة. فقط لو فكّرنا بشكل مختلف. ماذا لو فكّرنا بعمق في ما يجري الآن بين العرب. هل فعلاً فَقَدَ الشعبان البوصلةَ بهذه السرعة؟ هل يمكن إدارة هذه الملايين الكثيرة بهذه السهولة؟ إن كانت تتحرّك بهذه السهولة، فلماذا لا نجد مَنْ يحرّكها في الاتّجاه المعاكس؟ الشعوب التي تدور على بعضها يمكن أن تدور على حكّامها.

أتذكّر نتائج الانتخابات الرئاسية المؤخّرة في كلّ بلد :

بوتفليقة يفوز بـ90,20

زين العابدين بن عليّ 89.45

حسني مبارك 88.60 سنة 2005

القذافي ملوك أفريقيا

هذه الحرب كلّها والوطنية الزائدة عن اللزوم، إذنْ، وهذه التضحية بهؤلاء العمّال والمغتربين المصريّيْن الفقراء كلّهم من أجل أن يفوز المترشّح القادم بالرئاسة. هكذا تُستعمل الحشود حطبًا للنار في هذا الصقيع الرئاسي. لماذا ستنتخب الحشود مبارك أو ابنه؟ من أجل التنمية؟ أم من أجل نسبة الفقر الفظيعة؟ أم من أجل التعليم المتدهور؟ أم من أجل مستوى المعيشة الذي وصل تحت الصفر؟ ليس أمام النظام إلا الوطنية. إسرائيل لم تعد مَعنية بحرب، هي هناك بعيدًا على الشاطئ، تضع لها الدول العربية كريمات على ظهرها، وتستلقي هي على بطنها، في برنامج برونزاج طويل، بأعصاب مرتخية. ليس أمام النظام إلا اختلاق معركة زائفة. أيّ معركة، وأيّ عدوّ، وأيّ مناسبة. لا شيء بين أيدي النظام إلا كرة القَدَم. الوَهْم الأخير والأفيون الفعّال لتخدير الشعب وإخراجه عن طوره.

أغلقتُ الجهاز. في تلك اللحظة، دخلتْ عليّ الموظّفة. سنغادر المكتب مبكّرًا. سأُرسل إليكَ المخطوط للمراجعة من البيت، ممكن، أستاذ كمال؟

ممكن ممكن طبعًا، ممكن، هنا كلّ شيء ممكن، في بلد تُشعله نبحة من نباح "حكيم".

قلتُ في نفسي، وأنا أبتسم للموظّفة، وأهزّ برأسي.

28 نوفمبر

"الأشياء في حقيبة جامع النفايات هي في معناها ما نجنيه في الحياة، أو ما نرميه لكي ننتقل إلى المستقبل. إنها لم تستدع الحياة الكُلّيّة وحسب، ولكننا نحن أنفسنا كجامع نفايات الشوارع، نجمع الوجوه والانطباعات والصور، لنصنّفها، ونحفظها، إننا نجمع الشظايا، ونادرًا ما نملك رؤية شاملة للحياة".

قرأتُ هذا المقطع لأنييس نين وأنا أجلس في الصّفّ الثالث في الحافلة الزرقاء التي أخذتُها هذا المساء من بن عكنون باتّجاه الأبيار. شعرتُ أن كلّ ما أحياه هنا مُجرّد كيس من النفايات، كيس أحشوه بهذه الأشياء المتناثرة كلّها: أحزان ومشاعر متضاربة، وأحلام متفسّخة، بعض الصديقات، وبعض العاهرات، حفنة من الدولارات، وحفنة من لبّ الزيتون، وملاعق قديمة اقتحمت أفواهًا ميتة.

فكّرتُ طويلًا البارحة في تلك الملاعق التي اشتريتُها من على الرصيف منذ شهرَيْن. فجأة تذكّرتُ أنها دخلت أفواهًا قبلي. ما جعلني أتوقّف عن الأكل هو التفكير في مصير أصحاب تلك الأفواه. الأغلب أنهم ماتوا. كانت الملاعق طريفة، وبزخارف غريبة، وهو ما جعلني أشتريها. نسيتُ أنني سأُدخلها في فمي، ولن أضعها تحفًا. البارحة أكلتُ بها الشربة. ومع الملعقة الثالثة تذكّرتُ. ماذا كان يقول الذي أكل بها قبلي؟ هل هذه

الملعقة الملعونة ستجعلني أقول أشياء محترمة؟ أم ستجعلني أتورّط؟ هل ما أكتبه الآن خارج منّي؟ أم من صاحبها؟ هل يكفي أن نغسل الملاعق، لتفقد ذاكرتها؟ شيء غريب أحسستُ به وأنا أتتبّع نبض كلماتي وأفكاري وأنا أمسك بالملعقة. وأراها تلك الشَّفَتَيْن الغريبَتَيْن، تلتف عليها ساحبة الحساء في مكان آخر غريبا عن هذا المكان.

توقّفتُ وتمدّدتُ على المرتبة على الأرض. وأخذتُ أُدوِّن هذا الكلام. كلّنا نفايات بعض. لسنا في النهاية إلا نفايات معادة التدوير.

أفتح التلفزيون، وأتابع. صياح البرامج التلفزيونية المصرية. نفايات تخرج مع الفضائيات كلّها. صراخ، ومخاط يسيل على وجوه الإعلاميّيْن والمثقّفين والرياضيّيْن. مخاط مخاط مخاط.

29 نوفمبر

طبختُ اليوم مَرَق سبانخ. لا أدري ما الذي دفعني إلى ذلك. ربّما لأنني بدأتُ من أيّام أشعر بإغماءات. نعم. قرأتُ من أيّام أنها علامات سُكّري، أو نقص في الحديد. طبعًا استبعدتُ السّكّري مع أنه وراثيّ، وقد أجهز على خالَيْن وخالة من عائلتي، وتركتُ أمّي بتونس تصارعه. كانت السبانخ فكرة سيّئة، أكلتُها بدافع الجوع، وها أنا الآن مثل قنبلة، إن انفجرتْ، ستنسف هذه العمارة. سأُواصل قراءة رواية 1984 لجورج أورويل حتّى أنفجر أو أنام. أمعائي تتمزّق. لا رغبة لي في شيء. لن أقرأ جورج أورويل الثقيل. الحياة سوداوية أصلًا، سأقرأ هنري ميللر، ذلك الأمريكي المرح قد يكون الحلّ. أحبّ رأس أنييس نين أكثر منه. أشعر أنها الكاتبة الذكية التي تمنّيتُ أن أرتبط بها. امرأة مهبولة بالحبّ، وذكية حادّة العقل. كان هنري ميللر دائما محظوظًا.

لعلّ سببًا من أسباب إصراري على تسجيل هذه اليوميّات هو أنييس نين التي أقنعتْني أن اليوميّات هي أصل كلّ شيء. لكن السبب الرئيس الذي يجعلني أُدوِّن هذه التجربة هو ايماني بأنني أعيش تجربة غريبة رغم قساوتها، فإنها ستترك أثرها في حياتي القادمة. أشعر أنني هنا في برزخ. سلّم أقف عليه، سيتحرّك يومًا، ليُلقي بي في حياة أخرى، وأناس آخرين.

تركتُ "بليكسوس"، ووقفتُ قبالة المرآة. أبدو شاحبًا كخبر عن جريمة في صحيفة حكومية. ملامح ضئيلة بلا معنى، لا تعلم شيئًا عن شيء. جلستُ أكتب وأدخّن وأسعل. السعال يُؤنِسُ. الصوت الوحيد الذي أسمعه في هذه العزلة آخر الليل صوتي المصاب.

30 نوفمبر

عندما لا يحدث معكَ شيء، ويمرّ يومكَ بلا أيّ حَدَث، لا يعني ذلك أنه لم يحدثْ شيء. ما يحدث في هذا الدماغ أعلى الكتفَيْن يجعلني أشعر بالإرهاق. قضيتُ اليوم أتذكّر. تهاطلتْ عليّ الذكريات وأنا أقصّ أظافير قَدَمَيّ أمام هذه المرآة الضخمة. بعد الدوشّ أجلس عادة للتّخلّص من هذه الأظافير القاسية. تبدو كأنما لكائن معمّر. تجعلكَ تؤمن بتناسخ الأرواح. هذه الأظافير لا يمكن أن يكون عمرها ثلاثين سنة. تبدو بسمكها لعمر طويل. لذلك لا يمكن أن أنجح في التّخلّص منها إلا بعد الدوشّ يصيبها نوع من الطراوة. نسيمة أيضًا قالت لي يومًا: تبدو أكبر من عمرك بثلاثمائة سنة. تبدو مثل زيتونة بلا عمر محدّد.

تذكّرتُ وقتها زيتونة الفرس التي وقفتُ أمامها يومًا. كانت زيتونة مُسنّة، لا أحد يعلم مَنْ زرعها هناك قرب البيت، قالي لي أبي: إنها "زيتونة الفرس"، بحثتُ طوال اليوم عن الفرس، وعدتُ إليه، أسأله عنها. أخبرني أبي أن الفرس ماتت قبل أن أُولَد، لكنّ الزيتونة ظلّت تحمل اسمها، أذكر أنه قال لي :"أنا أيضًا سأموت، وستبقى أنتَ تحمل اسمي". منذ ذلك اليوم تغيّرتْ نظرتي إلى الأشياء، وأصبحتُ أُطلق الأسماء عليها. عرفتُ أن الأسماء تحفظ الأشياء. ماذا لو كانت تلك الزيتونة بلا اسم؟ هل سأذكرها اليوم؟عندنا مائة زيتونة بلا اسم. فكّرتُ يومها أن أُطلق عليها جميعًا أسماء

مثّل تعيش. سُمّيت الزيتونة الثانية" زيتونة عمّتي"، كانت تُشبهها رفيعة وقاسية وجدباء، لكنها حنون، وتُعطيني دائمًا تمرًا وبرتقالًا، تُخرجهما من حجرها، لذلك سُمّيت أوّل زيتونة باسمها. بعد أيّام وأنا عند زيتونة عمّتي أزرع فخًا للقبّرات، كان الصراخ يشقّ صدر السماء. تركتُ فخّي للمجهول، وركضتُ نحو البيت. عند الباب، وجدتُ النعش الذي تمدّدتُ عليه في المقبرة منذ أيّام. قيل لي إن عمّتي قد باغتَها الضغط، وسقطت ميتة في بيتنا. منذ ذلك اليوم، توقّفتُ عن تسمية شجر الزيتون.

عندما صفَعَني أخي، لأنني رفضتُ أن أعطيه خبزي الساخن، هدّدتُهُ بأنني سأُسمّي زيتونة باسمه. لم يفهم شيئًا، وأخذ يضحك منّي ساخرًا. مُجرّد أن هدّدتُهُ عاد عند المساء ملدوغًا. تأكّدتُ وقتها أن في إمكاني أن أقتلَ بالأسماء، لذلك كلّما سألوني عن اسمي تُصيبني رعدة، وأنا أذكره. في إمكاني الآن أن أخلق الأسماء كما أريد في هذه اليوميّات، لكنني أشعر أنني بصدد إعداد وليمة للقتل الجماعي. أشعر أنني كلّما تذكّرتُ قتلتُ. كلّما استحضرتُ اسمًا من ذاكرتي، رأيتُهُ في منامي مشنوقًا على بابي. البارحة رأيتُ نسيمة تتدلّى من نافذة الشّقّة.

1 ديسمبر

أكتب كلّ يوم تقريبًا منذ أشهر في هذه اليوميّات. ومع ذلك ماتزال الرواية تتحرّك بثقل كبير. محن الواقع أثقلتْ على محن الخيال، وتداخلا في ذهني، فلم أعد أعرف أحيانًا ما أكتب بالضبط. هل أكتب الخيال أم الواقع؟ أحاول أن أكون وفيًا لما أعيشه هنا. لكنْ، هل ما يحدث في رأسي يحدث بعيدًا عن هنا. كانت رؤوس كثيرة تلتهم وجهي. كانت أفواه جافّة كما لو كانت محنّطة أو محروقة حروقًا قديمة. وكان وجهي يغادرني كسيور من اللحم. كان يتقشّر تحت شفاههم كحبّة برتقال. تركتْهُ تلك الرؤوس، ورحلتْ كما جاءتْ من الظلام. أفقتُ من الكابوس. كان وجهي في المرآة هناك لا يُشبهني.

سمعتُ أن النوم أمام المرآة يجلب الجنون. أين أهرب من هذه المرآة الضخمة؟ فالغرفة أصلًا خزانة كبيرة.

2 ديسمبر

البارحة أيضًا عادت لي تلك الوجوه المحروقة. أحصيتُها 12 وجهًا.

أنهيتُ الآن العمل الذي كان يجب أن أفعله منذ سكنتُ هذه الخزانة. خبّأتُ المرآة العمودية الضخمة بورق الجرائد. أشرب الآن قهوتي مستنشقًا رائحة الكحول. أشعر أنني أتنفّس بصعوبة. وقفتُ أمام تلك المرآة المخفية. ابتسمتُ. اختفتْ. ذهبتْ إلى الجحيم. كانت أمّي قد انتزعت المرآةَ من غرفتي وأنا شابّ: ستجلبُ لكَ الكوابيس. لا تنمْ أمام المرآة، ولا أمام النافذة مفتوحة. اليوم عليّ أن أُكلّمها. اشتقتُ إلى صوتها. مضى أسبوع، لم أسمع صوتها ولا صوت هارون.

عندما قرّرتُ أن أغادر الشّقّة، لَفَتَ انتباهي أمرٌ ما. عدتُ إلى المرآة. الصحف التي غلّفتُ بها المرآة كلّها أخبار الكرة. منشتاتٌ كبيرةٌ عن الغدر والحقارة. شتائمُ وسبابٌ. خبرٌ عن عمليات إرهابية بالعمق الجزائري. بعض أخبار الفساد، مسؤولون كبار. حوارٌ طويلٌ تتصدّره صورة كبيرة لعليّ التونسي. هل هذه الأخبار والوجوه هي التي ستُبعد عنّي الكوابيس؟

3 ديسمبر

دخلتُ عليها الغرفة بغتة، لأجدَها تشاهد فيلمًا. أقفلتِ التلفزيون بسرعة. كان عليّ أن أخبركُم أن نسيمة مهوسة بالسينما. حضرنا معًا عديد الأفلام، وهي منْ جعلني أُغرم بأفلام أوروبا الشرقية. تقول إنها تجد راحة كبيرة معي، فلا أحد يمكن أن تناقش معه فيلمًا هنا. الكلّ يأكل كرة، ويتبرّز كرة. لكنها اليوم بدتْ مرتبكة، كما لو أنني ضبطتُها مع عشيقها. سألتُها عن الفيلم الذي كانت تُتابعه، فتهرّبتْ من الإجابة، وغيّرت الموضوع. قفزتْ إليّ، وأسقطتَني على السرير، وراحت تُقبّلني في وحشية. قُبلها مُصطنَعة، هكذا خمّنتُ وهي تمضغ شَفَتَيّ. عندما مددتُ كفّي إلى فرجها، وجدتُهُ ناشفًا. ضمّتْني، وراحتْ تُحدّثني عن ضرورة أن أعود إلى الكتابة. لأوّل مرّة تُحدّثني عن هذا الموضوع بعد أن أخبرتُها عن قراري باعتزالها نهائيًا. قالتلي: "لا تيأس"، كم أكره هذه الكلمة! تبدو لي غبية، فنحن نيأس، لا لأننا لم نعدْ قادرين، بل لأننا لم نعد ندري، ولم تعد لنا إرادة. الدراية والإرادة هما باب الحياة. انفعلتُ وقتها، ورحتُ أضرب السرير ساخطًا عليها، وعلى أفكارها.

قفزتْ من أمامي، تبحث عن عصير يخفّف توتّري. وما إن خرجتْ حتّى قفزتُ بدوري إلى غلاف قرص الـ DVD الذي مازال داخل قارئ الأقراص. وقرأتُ Misery. استغربتُ من العنوان، بدا لي مزريًا، وهي، عادة، مهتمّة

بالأفلام الرومناسية. صورة الغلاف مُقرفة لامرأة بلا أنوثة رافعة مطرقة في الهواء، كما لو كانت ستهوي بها على أحد. تركتُ غلاف القرص، وعدتُ إلى مكاني، بينما عادت هي بكأس العصير. عرفتُ من رائحته القوية أنه من مسحوق مُذوَّب في الما.، فأعدتُهُ إليها:أنتِ تعلمين أنني أكره الكذب؟

بدا عليها شيء من الذعرالذي رأيتُهُ أوّل ماشاهدتُها.

أيّ كذب؟ هل كذبتُ عليك؟

قمتُ وحملتُ مغلّف قرص الفيلم، فبدا عليها شيء من الخوف.

أنا أكره الكذب.

تقدّمتُ نحوها وكأنني أهمّ بقتلها.

ما بكَ، أيّها المجنون، لماذا تتكلّم هكذا؟ ماذا فعلتُ لكَ؟

هذا العصير.

ما به العصير؟

اشربيه.

اختطفتْ كأسَ العصير، وشربتْ منه.

ما به؟ عصير.

وقفتُ أتابعها وخوفها يزداد.

هذا عصيرٌ كاذبٌ. تعلمين جيّدًا أنني لا أشرب إلا "الفريش".

صاحت:

تبًا لكَ، أخفتَني. بدون مثل مجرم،

أو أبطال ستيفن كينغ،

ارتبكتْ وهي تسمع اسم الروائي الأمريكي، ونظرتْ إلى القرص.

هل رأيته؟

قرأتُ الرواية. بشعة.

ربمّا. فيلم أمريكي سيّدة الأفلام الأروبية، أليس غريبًا؟

لذلك هو فيلم بشع، وبذلك قطعتُهُ.

لم أرَ هذا الإحساس عندما دخلتُ.

بل كنتُ أتحيّن الفرصة، لأُسكته. قلتِ فيلمًا بشعًا؟

البشاعة جميلة ولذيذة أحيانًا.

في الليل، رأيتُها تُهشّمني بمطرقة، كما كانت تُهشّم ممرّضة الروائي بطل ستيفن كينغ، فقمتُ مذعورًا. خرجتُ للصالون. من خزانة صغيرة قرب الباب، أخرجتُ الرفشَ. اتّخذتْهُ سلاحًا احتياطيًا منذ أن سَكَنَتْ هنا. حملتُهُ، وتقدّمتُ من غرفتها. كانت تغطّ في نومها على ظهرها. مغرية تمامًا للقتْل.

4 ديسمبر

"كتابة شيء ما يتركلكَ مثل بندقية أطلقت النار، ولا تزال تهتزّ وتُدخّن. كأنكَ أفرغتَ نفسكَ من ذاتك تمامًا". قرأتُ هذه العبارة منذ سنوات لذلك المجنون أرنستو ساباتو. لا أشعر أن أحدًا فَهِمَ هذا الإنسان الذي أحياه مثله. كان عميقًا حدّ العقم. أن تكون عالمًا بكلّ شيء، هذا يجعلكَ تتوقّف عن كلّ شيء. تتوقّف عن إنتاج كلّ شيء، فالكتابة تلبية حاجة. الكتابة حالة نقصان. لذلك كلّما اقتربْنا درجة من الكمال، توقّفْنا عن الكتابة. توقّفْنا عن أيّ ممارسة نمارسها. المعرفة إشباع، ولكنها أيضًا محرقة. فأن تعرف، فهذا يعني أنكَ أدركتَ، والإدراك شرفة آمنة على الموت، وعلى النهاية. أشعر اليوم أنني في مرحة السؤال. مرحلة الأسئلة التي يتركني طرحها دخانًا. الليلة بعد أن انتهيتُ من كتابة مقطع من روايتي، وأغلقتُ ملفّها على اللابتوب، فتحتُ هذا دفتر اليوميّات هذا، فوجدتني مثل تلك البندقية؛ ماسورة من حديد تُطلق دخانًا. ليس عندي ما أكتبُهُ. تصبحين على خير، أيّتها الأرواح.

5 ديسمبر

منذ شهرَيْن، لا أبني شيئًا، ولا ينمو معي إلا قتيل طُفيلي، رماه عليّ يوسف الكلونديستان المهبول، ورحل.

عندما أخبرتُهُ بمكان شقّتي الجديدة، استبشر: "الأبيار هايلة. شكون كيفك، يا شيخ"؟ ولكنْ، ما إن وقف البارحة أمام العمارة حتّى تغيّرتْ ملامحه. كان قد نزل من سيّارته، ليسحب معي حقيبة من حقائبي. قطعتُ منذ أيّام تذكرة إلى تونس أخيرًا. قلتُ أقضي يومَيْن، وأعود. دخل يوسف معي باب العمارة، وعندما أشرتُ عليه أن ينزل معي طابقَيْن.

- ارتبك: طابقَيْن؟

نعم. الشّقّة في الطابق الثاني.

كانت خطواته تثقل مع كلّ خطوة حتّى تركتُهُ، وأسرعتُ نحو غرفتي في آخر الرواق. كانت حقائبي جاهزة. حقيبة كاملة لهارون، اشتريتُ له ملابس ولعبًا كثيرة. كنتُ أشتري له، كلّما اشتقتُ إليه، وكنتُ أشتاق إليه كلّ يوم. كلّ بدلة أشتريها، وأقول هذه تكفي، وأعود وأجد أجمل منها، فأشتري من جديد. بعدها اتّخذتُ استراتيجية جديدة. أشتري له ملابس أكبر منه بسنة، وبسنتيْن، وبثلاث سنوات. هكذا تضخّمت الحقيبة بالسنوات. جررتُها، وخرجتُ. كان في يدي بدلة الفريق الوطني الجزائري. لا يمكن أن تنجوَ من

الكرة هنا. رغم عداوتي الشديدة لها، وأعلم أنها سبّبتْ لي اكتئابًا، فقد اشتريتُ لهارون بدلة رياضية بعلم الجزائر. كان يوسف هناك أوّل الممرّ تحت الدرج. تسلّم منّي حقيبة، وصعد قبلي كَمَنْ يفرّ من وحش. عند السّيّارة لمحتُ وجهه المتعرّق، وقد بدا شاحبًا مصفرًا. ناولتُهُ الحقيبة الأخرى، وضعها بجانب الأولى. وقفز وراء المقود بلا كلام. في الطريق نحو المطار، ظلّ يوسف صامتا ينظر نحو الطريق بطريقة غريبة.

- يوسف؟! أنتَ ذاهب إلى المطار؟ أم إلى تفجير نفسكَ؟

انتبهَ كَمَنْ يخرج من نوم ثقيل: وعلاش، يا أستاذ؟

لاحظتُ أنه لم يخاطبني "يا شيخ" هذه المرّة.

ليس من عادتكَ أن تصمتَ هكذا.

ماكان والو نهدر عليه.

راك زعفان!مابك؟

ماشيء. لوتوموبيل تعبتْني. راهي كبرت. 10 سنوات. والطريق واعرة. مغلوقة كيما راك شايف. لازم نكوسنتري ولا لا؟

ركز يا لخو ركز الله لا يجعلنا جرة.

ما فهمتكش. شنوا الجرة؟

قتلك الله لا يجعل منّا سببا لأي سوء يحدث لك.

وعلاش كلّ ها الهدرة بالعربية. راك تتكلم كما BBC؟

مالا راك تحبني نتحدث كما جريدة الشروق؟

قلتُ جملتي، وأشرتُ له بالجريدة المَطوية بجانبه. عاد إلى الصمت مشغّلاً أغنيّة للشّاب حسني.

مرّ وقت قبل أن أقول له: تعرف أني تربّيتُ على أغاني الشّابّ حسني، وأوّل كاسات اشتريتُها وأهديتُها لصديقة، كانت "الزرقاء مونامور". الله يهلك الي ما...

نظر إليّ نظرته الغريبة، وواصل نحو المطار في صمت. عندما وصلنا. نزل وجرّ معي الحقيبة. كان يتحرّك أمامي مضطربًا. عند البوّابة، سلّمني الحقيبة. سلّم عليّ، ومضى أربع خطوات، ثمّ عاد.

- سأخبرك يا أستاذ، لأرضي ضميري.

ما بكَ؟ قلتُ بشيء من القلق.

هذا البيت الذي استأجرتَهُ فيه مشكل.

مشكل عقاري؟ قلتُ ضاحكًا.

مشكل قَتْل. طاحت فيه روح كما تقولو.

قَتْل ماذا؟!

قتل شخص أجنبي ثمة شكون يقول أمريكي وثمة شكون يقول ايرلندي. جاء لدزاير ناس تقول يخدم في الاستيتيك. التجميل يعني. وناس تقول رسام جاء يرسمالعاصمة الجزائر. المهم متأكّد م الهدرة هذه يا شيخ. كنتُ هناك قدام هاك العمارة نوصلو في واحد لسفارة اليونان كيف خرج الدرك الوطني الجثة. قالوا يلقوها بعد أيّام بعد ما خرجت ريحتها. هاني قتلك وخلاص.

لا أفهمكَ! ماذا يعني هذا؟

يعني أنكَ سَكَنْت في شقّة، تقتل فيها بشر وما سكنها حد من وقتها.

- لماذا قلتَ لي هذا الآن؟ كانت الكلمات تخرج من حلقي بصعوبة.

لكي يكون لكَ الوقت للتفكير. رفليشي في ها الفواياج. يمكن تفكّر في وحدة أخرى.

تركني، ورحل. في الطائرة. بدأتْ تغزوني أسئلة سوداء. يعني هذا أنني دفعتُ تلك الأموال كلّها التي استلفتُها من مقرّ العمل على أشهر مقبلة، لكي أستاجر شقّة، قُتل فيها شخص، ولم يُرفع منها حتّى خرجتْ رائحته؟

بدأتُ أسترجع ملامح ذلك السمسار الذي تحصّل على ما قَدْره شهرَي إيجار كيف كانت عيناه الغريبتان تتحرّكان بطريقة مُريبَة، كثيرًا ما حدّثتُ نسيمة عنهما متندّرًا. تذكّرتُ صاحب الشّقّة الرجل العجوز الذي أصرّ أن أُبقي تلك المرتبة الهوائية هناك. فقط أخذ بعض الأحذية الرياضية. قال إن ابنه يأتي ليسكنَها في الصيف فقط، وأحيانا لا يأتي.

مسكت بدلة هارون الرياضية. سحبت التي شورت.كتب على كامل الظهر رَقْم 10. كنتُ أبتسم للرَّقْم سارحًا في كلّ ما حدث لي عندما باغتتْني المضيفة.

درا تحب دزاير لها الدرجة؟

انتبهتُ أنني كنتُ أبدو متأثّرًا وأنا أشدّ التي شورت إليّ. أعادتْ سؤالها. لها الدرجة؟!! هذه المرّة اكتشفتُ أنها تُشبه مديحة كامل.

ممكن، كاس ماء؟

بيانسير. طبعا. [illegible]

لم يأت كأس الماء إلى الآن. أجلس في الصالون في بيتي في تونس بعد أن وزّعت الهدايا. ملابس هارون مرتّبة قرب رأسي على الأريكة الأخرى. [illegible] هارون [illegible] وعدتُ أنا إلى هذا الدفتر أكتب. ليس أسوأ من أن تجدَ [illegible] في دفتر. هذا أسوأ ما في اليوميّات أنها تأسركَ. تُدخِلكَ في [illegible] الاكتئاب والتّوحّد، وتزيد من غربتكَ واغترابك. أراني مقطعًا على هذا الورق في فقرات قصيرة تحت تواريخ صغيرة.

6 ديسمبر

اليوم قضيتُهُ مع أمّي. أخذتُ لها هارون. كان الطقس باردًا. رفض هارون أن يرتدي الزيّ الرياضيّ، لقد أحبّ زيًا آخر. كان من الجلد البنّيّ يُشبه لباس الهنود الحُمر، تدلّتْ منه السيور الجلدية من أطرافه كلّها. أحبها هارون، وضحك. اشتريتُ ذلك الزيّ، لأني سبق ولبستُ زيًا مثله في طفولتي، أهداه لي خالي.

- أشعر دائمًا أنني أُشبه هنديًا أحمر. لا وطن لي في هذا الوطن.

كان عليّ أن ألتقي هذا المساء بصديقي نبيل درغوث، فقد كان الشخص الوحيد الذي يتفقّد بيتي، ويسأل عن هارون. سأُسلّمه بعض الكُتُب التي اشتريتُها له. الكُتُبُ أيضًا بجانب ملابس هارون. "عنف اللغة لجان جاك لوسركل وكتاب "حالة ما بعد الحداثة" لدفيد هارفي، والأهمّ من ذلك أنني سأُسلّمه بعض الدولارت الباقية. نبيل هو خزينة غربتي. يتحيّن فرصة ارتفاع سعر الدولار، ليصرف المال إلى الدينار. أشعر أحيانًا أن هذه الغربة حوّلتْني إلى تاجر عملة بائس. ربمّا لهذا كنتُ أكره أن أهاجرَ، وبقيتْ رهينة لهذا النظام البائس والتعطيل عن العمل الطويل. تذكّرتُ الآن أنه عليّ أيضًا أن أزورَ تمثال ابن خلدون قبل أن أعودَ غدًا للجزائر. عليّ زيارة التمثال. زيارتُهُ تُشعرني أنني زرتُ ضريح أبي من

سنوات. لا أريد أن أرى أحدا آخر. الناس لا تتحدّث إلا عن الطرابلسية وصخر الماطري [illegible] وبنك الزيتونة. لا شيء يستحقّ أن أعود إليه هنا. حتّى هارون أيضا يحتاجني أكثر هناك بالجزائر. دفعتُ بعض ديوني [illegible] بعض الراحة.

7 ديسمبر

من ربع ساعة طيران أبحث عنها بعيني في الاتّجاهات كلّها، ولا أراها. هذه الطائرة لا تحمل مديحة كامل. "رحلةِ ذكَر من أوّلها"، قلتُ في نفسي. المضيف شابّ أبيض نحيف، يُشبه كافكا. سريع كالبرق. لا يحمل شيئًا على الإطلاق. أخبرتُهُ أنني طلبتُ في سفرتي إلى تونس كأس ماء، لم أشربْه بعد. وعدني بأن يأتي لي به. لم يبتسم حتّى من المزاح. فتحتُ اللابتوب لأقلّبَ صور هارون الجديدة. التقطتُ له عشرات الصور، لكي لا أحتاج لأن أطلبها كلّ مرّة. لكنني أطلب الصور الجديدة، لأتابع نُمُوّه، وسأظلّ أطلبها حتّى لو التُقطتْ له مليون صورة الآن. العواطف تجعلنا حمقى أحيانًا. لم أشعر في تونس بأيّ مشاعر. الجميع تعامل معي كأيّ عامل بالخارج. حمّال هدايا وأموال. وكان عليّ أن أُوزّع الابتسامات والجلابيب والحلويات الجزائرية، وكأن عليّ أن أؤيّد المديح للجزائر والجزائريّيْن كلّهم من أناس، لا يعرفون من البلد إلا فريق كرة القَدَم. كان عليّ، في المقابل، ألا أذكر شيئًا ممّا عشتُ. على المهاجر أن يبدو قويًا وخارقًا وبطلاً. هكذا عوّدتْني الأساطير التي تبني صورة المسافر. ذلك الذي نجح في أن يرمي جسده خارج الحدود. أيّ حدود. حتّى تلك التي بيننا وبينها خطوات. لا أحد قرأ ثانية حزنًا من عيني. لا أحد انتبه إلى تلك الجروح المفتوحة تحت الجلد. أفزعَني كافكا وهو يمدّ إليّ كأس الماء، ويأمرني بإغلاق اللابتوب. شربتُ الكأس، وأغلقتُ الجهاز. كان كافكا غاضبًا. يبدو أنه

ظلّ يناديني طويلاً قبل أن يهزّني بذلك الشكل وأنا شارد. لأوّل مرّة، أرى مضيف طائرة غاضبا. لم أحاول أن أنام بعض الوقت. أشرتُ إلى كافكا ألا يوقظَني للأكل. نبّهني باستنكار أن السفرة كلّها ساعة. كافكا يريد أن يمنعَني من النوم! المخطوط الجوّيّة الجزائرية كافكاوية بطبعها دون الحاجة إلى كافكا مضيفها. ذكّرني المضيف بنادل المقهى في تونس، يتعامل مع الحرفا، طوال الوقت بعبوس، وكأن بينه وبينهم ثأر، ويزداد حقده إن طالبتَ بكأس ما، مع القهوة. النادل التونسي يكره عمله، وكأنه اقتيد إليه اقتيادًا. اشتغلتُ شهرًا في محلّ للبيتزا بمنطقة العوينة، وأنا طالب. كان الحال صيفًا. ظللتُ طوال الوقت أُراقب نفسي أن أكون مرحًا ومبتسمًا.كلّما غفلتُ عن مراقبة نفسي، سقطتُ في الحزن والعبوس. يبدو أنها حالة مغاربية. شعوب سوداوية، ومع ذلك في استطاعتي أن أقول إن عبوس الجزائري مختلف، لأنه مُغلّف بالعنف. هو حزين لشأن آخر. حزين لخيبة بعيدة ساكنة في عظامه. ولأنه يعتقد أن الحزن ضعف، سيفضحه، يلبس قناع الغاضب. بمُجرّد أن يطمئنّ إليكَ، ترى دمعتَهُ تأجّجتْ. لكن هذا الكافكا غريبٌ، لا حزن ولا غضب، إنه فقط بارد كابن الجوّ. طائرٌ بلا طعم، أنهكَه الطيرانُ، نسي لأيّ وجهة خرج. طائر تراجيدي محكوم عليه أن يبقى معلّقًا، يأكل ذلك الأكل البارد. مَنْ يعيش على أكل الطائرات الجزائرية لا بدّ أن يتحول إلى شيء كهذا المسرع بلا هدف ولا معنى. نكاية في كافكا الخطوط الجزائرية أغمضتُ عينَيّ، ونمتُ.

8 ديسمبر

وأنا أجرّ الحقائب في الرواق بالطابق السفلي البارحة، تذكّرتُ ما ينتظرني في البيت. لم يردّ يوسف على الهاتف، فأخذتُ تاكسيًا من المطار إلى الأبيار. داخل العمارة، عادت إلى ذهني صورته وهو متعرّق صامت، يركض بي نحو المطار قبل يومَيْن. تذكّرت تحديثه عن القتيل. فجأة شعرتُ كأنما صرتُ أحمل على أكتافي جثّة ثقيلة. لم أعد أذكر شيئًا. فتحتُ ضوء الهاتف، وسرتُ نحو الباب.

9 ديسمبر

مع كافكا. لم أغادرْ رأسه. لم أغادرْ "معسكرات العقاب".

10 ديسمبر

اليوم قابلتْني صورة زين الدّين زيدان في صحيفة جزائرية. رأيتُهُ يبتسم على الصفحة الأولى. لا أدري لماذا شعرتُ بالحقد تجاهه. تمنّيتُ أن يكون أمامي، لأتقدّم منه، وأنطحه، كما نطح ذلك اللاعب يومًا. مضيتُ نحو أقرب مقهى أطلبُ "ديراكت".

تذكّرتُ. اليوم ذكرى الإعلان العالمي لحقوق الإنسان. ها ها ها ها ها ها ها ها ها .

"ماكياطه يا لخو ". طلبتُ القهوة، وجلستُ أُفكّر وزيدان مازال متربّعًا في رأسي بصلعته القبيحة. لماذا أنا الوحيد من دون مَنْ حمل رَقْم 10 أحظى بهذا الحظّ العاثر؟ تذكّرتُ بيلي وزيكو ورونالدو ومارادونا وبلاتيني ولاودروب وديل بيرو وباجيو. حتّى باجيو بركلة خلفية كرفسة حصان دخل التاريخ. إلا أنا لا أحقّق شيئًا، وأحمل على أكتافي عبء هذا الرّقْم منتظرًا تحقيق أي هدف، في أي شبكة، لأي فريق.

تذكّرتُ نسيمة وأنا أنهض لأمضي إلى العمل تاركًا الماكياطه كما هي. أنا أحقّق أهدافًا لا أنتبه إليها كثيرًا. قلتُ في نفسي. نسيمة بدأت ترتجف تحت النافذة. لكنّ النّوم معها مازال يدير أمعائي، كما

تفعل الماكياطه وأكداس الترجمات التي تنتظرني في المكتب. يخرا المترجمون المسوّدات، وعليّ أن أراجع. أشعر أن التجاوُر الحرفي بين الترجمة و"الترمة" ليس صدفة. لا فرق إلا بجيم الجنون.

11 ديسمبر

ليس من السهل أن تجلس هناك. عليكَ أن تبلغ أوّلًا. أن يتدفّق مَنِيُّكَ بغزارة مع أوّل عادة سرّيّة. عليكَ أن تكون قد أكلتَ بعينَيْكَ نهود فتيات القرية ونسائها كلّها. عليكَ أن تكون قد حفظتَ عن ظهر قلب طول قطب مؤخّرات إناث القرية. وعليكَ أن تكون قد اعتزلتَ مضاجعة الماعز والأتان. لايمكنكَ أن تجلس هناك حتّى تكون عرفتَ أوجاع الصدر من تضخّمات البلوغ الأوّل. عليكَ أن تكون احتلمتَ بالنساء كلّهنّ اللاتي اعترضنكَ في المجلات الإباحية المهرّبة. الحجرة البيضاء ليست ككل الحجارة البيضاء، إنها الصخرة التي شقّتْها زيتونة غاضبة، ونَبَتَتْ بعناد. انشطرت الصخرة نصفَيْنْ من حكايات الشّبق التي يرويها الفتيان. انشطرت الصخرة، ونَبَتَت الزيتونة. لم يرَ أحدٌ منّا عبر الأجيال حبّة زيتونة واحدة بزيتونة الحجرة البيضاء. كأنما نَبَتَتْ تلك الزيتونة، لتقوم بأدوار أخرى غير إنتاج الزيتون. الحجرة البيضاء لا هي بالماخور، ولا هي بالحانة، ولا هي بالمقهى، لكنها حجرة محرّمة على الصبيان. نحلم بسنّ البلوغ، لنجلس عندها، نتبادل الحكايات ولذائذ السِّيَر والأخبار. يوم تدفّق مَنِيّي مثل الرّشّ بين يَدَيّ وأنا أجلد عميرة، سرتْ في وجهي دغدغة، وأخذني ذهول رائع، وانفتح قلبي على مشاعر من الفرح، لم يعهدها، وأنا أتخيّل نفسي غدًا أجلس على الحجرة البيضاء، أنفث سيجارتي، وأنا أروي للرفاق قصّتي مع فتاة ضاجعتُها وقبّلتُها في الوادي أو في الغاب أو عند البئر. الحجرة البيضاء رُميت في

قلبي مثل نور مقدّس. يومها بقيتُ أتأمّل مَنِيّي والأرض تشربه، لتحبل به شجرًا، يشقّ الصخر إلى نصفين.

عند هذا الفجر، شرقتْ كعادتي. تسرّب الريقُ في مجرى الهواء مرّة أخرى. منذ مدّة تلازمني هذه الشرقة. قمتُ من نومي أسعل بلا توقّف باحثًا عن نَفَس ضائع. استمرّت نوبة السعال ربع ساعة. لا أحد كان يسمعني هنا. فكّرتُ مرّات أنني يمكن أن أموت بسببها. وتخيّلتُ مَنْ سيعلم بي؟ إلى أن يقرّر بعض زملاء الشغل تفقّدي تكون رائحتي قد وصلتْ تونس. العشيقات لن تجرؤ واحدة على المجيء هنا، وسؤال الجيران عنّي مثلًا.

هذه المرّة كانت النوبة قوية، ظللتُ ربع ساعة أُقاومها. شيئًا فشيئا استعدتُ التّنفّس. بدت الأنفاس الأولى مثل خيوط من النور، تطرد شيئا فشيئًا ظلمتي. انتبهتُ للمنديل الذي كنتُ أضعه على فمي قد تبقّع بنقاط دم قانٍ. كانت قوية هذه المرّة حتّى جرحتْ حَنْجَرَتي.

تذكّرتُ، وأنا أنظر إلى المنديل، إشراقَ. صديقة طفولتي كنتُ يومها أُحدّثها عن رغبتي في الطيران، وفجأة شرقتُ. لم تفهم إشراق ما حصل لي. أصابها فزع شديد، فراحت تهزّني مرّة، وتهرب مرّة أخرى بعيدًا قبل أن تعود، تسألني عن حالي. عندما استعدتُ تنفّسي، كان وجه إشراق شاحبًا، كما لو أنه فَقَدَ دمه كلّه. "كلّما حلمتُ شرقتُ". غمغمتُ، ثمّ عدتُ إلى السعال. . أنتَ تقول كلامًا لا أفهمه. هذه أرض تخنق أحلامي. قامت إشراق، ورحلت قبل أن تسألني حتّى عن حلمي، وهرولتُ أنا إلى "الحجرة البيضاء". بقيتُ ساعات أدور حولها رافعًا رأسي نحو الزيتونة العاقر حتّى سقط الظلام على أكتافي، ولم أعد أرى شيئًا. زيتونتي كانت تُشبهني تمامًا. كانت تحلم في قلب صخرة. عرفتُ شرقتي الأولى يوم سمعتُ أمّي تهمس لجارتها: "منعرفش كيفاش عاش هذا المكبوب. شربت عليه

الحشائش المسمومة الكلّ وما طاحش". حاولتُ بلع ريقي، فشرقتُ. ركضتُ بعيدًا، كما لو أنني كنتُ أهرب من بقية الحكاية. ووراء الحائط رحتُ أسعل. الذهاب إلى الحجرة البيضاء كان يومها حلمي. واليوم ها أنا ببقايا شرقتي. أجلس في هذا الفجر في الطابق الثاني تحت الأرض أُفكّر. في جملة أمّي لجارتها. هل فعلاً عشتُ، يا أمّي؟

أشعلتُ سيجارة، وجلستُ أنتظر طلوع الشمس.

- حتّى القتيل كان نائمًا.

12 ديسمبر

ذكرى اغتيال جبران تويني. عرفتُ ذلك من صفحة الصديقة اللبنانية. تجسّستُ عليها اليوم. فقد حدث بيننا خلاف منذ أيّام. أتفقّدها عبر صفحتها. هذا الفايس بوك وسيلة جيّدة لنتفقّد بعضنا البعض دون كلام. ذكرى القتل تجعلني أكثر توتّرًا. ذكّرني المنشور بالمثقّفين والمبدعين الجزائريّيْن الذين ذَبَحَهُم الإرهاب. تذكّرتُ بختي بن عودة. الكاتب الذي أحببتُ أن ألتقيه بالجزائر، لكنه اغتيل قبل مجيئي بسنوات. كنتُ أقرأ لبختي في مجلّة "كتابات معاصرة" اللبنانية التي أحببتُها من كتاباته، وتزامن ظهور أوّل دراسة لي فيها مع ملفّ حوله في ذكرى اغتياله. مازلتُ أذكر ذلك العدد45. كان يُعجبني عقله التفكيكي الضاري. منه عرفتُ جاك دريدا. تحدّثتُ عنه مرّة مع صديقي المفكّر سليم دولة. بدا لي توأمه التونسي. سليم أيضًا مغتال في تونس. منْ قال إن مَنْ ينجو من اغتيال يبقى حيًا. مازال الآن يحارب القدر النوفمبري في شارع بورقيبة، كما دونكيشوت. يزرع أحلامًا صغيرة برؤوس بعض الشباب، لكي يشقوا طوال حيواتهم بذلك الوعي الشقي.أنا واحد من تلك الرؤوس التي حملتْ بعض ذلك الورد الذي زرعتَهُ، يا شقيق. كم أحنّ الآن إلى جلسة واحدة مع سليم. أسمع منه تلك التحاليل وتلك القصص والحكايات، وذلك السخط. قبل أن آتي هنا، سلّمتُ سليمًا نسخة من روايتي. كانت تحمل عنوان أطفال بورقيبة قبل أن أقرّر تغيير الاسم. وها أنا أنسف المخطوط كلّه، وأُعيد البناء. رغم

أن سليمًا قال لي إنه جيّد، وأثنى عليه. مُوَسْوَسٌ دائمًا أنا بإعادة البناء. كم أريد أن أُعيد بناء هذه الحياة من الصفر! لكنْ، كيف وأنا هنا أقف على جدار هذه الصديقة الغريبة، أنظر في خبر اغتيال جبران تويني؟

- تذكّرتُ أنني رأيتُ مرّة أحد الكتّاب الجزائريّيْن نشر صورة بجانب قبر بختي بن عودة. كتبوا على شاهدة قبره تُوفيّ 22 /05/ 2005. قلتُ له وقتها لماذا لم تكتبوا اغتيل يوم كذا. هل تخشون الإرهابيّيْن؟ لم يردّ على تعليقي. ردّ معلّق آخر: سيُحطّمون الشاهدة. رددتُ لقد حطّموا رأس المفكّر، ما قيمة الشاهدة على قبرة؟! وانتهى الحوار هناك. منذ مدّة، أبحث عن نسخة أخرى من كتابه "رنين الحداثة" الذي فَقَدْتُهُ من مكتبتي.

صار موعد الحافلة وأنا أُفكّر في الوهراني. أغلقتُ اللابتوب، وركضتُ. وأنا أُغلق الباب، وأصعد السّلّم، تساءلتُ: هل هناك ما يؤكّد أن مَنْ قتل بختي هم الإرهابيون؟ كانت مقالاته عن الفساد قد برقتْ في ذهني.

في مكتبي بدالي إبراهيم ظللتُ أُفكّر ببختي بن عوده. وانتهيتُ إلى نتيجة واحدة أن الجزائر ليست البلد الذي يصلح لي الآن. هذا البلد مازال ينزف وغير مؤهّل أصلاً لتضميد أيّ جراح خارجية. كيف نطلب من النازف أن يهتمّ بجُرحنا. أينما وجّهتُ وجهي، أجد الموت وأخباره. الشهداء والشهيد على ألسنة الجميع. أنتَ تسمع هنا كلمة شهيد من الطفل والشيخ والمرأة والجامعيّ والفقيه والأُمّيّ والمُومِس واللّصّ والقاتل. للجميع شهداء، والجميع شهداء قادمون.

الآن وأنا أهرّب هذه اليومية، لمحتُ الساعة الحائطية تشير إلى منتصف الليل، تحتها كانت جثّة بختي بن عودة المثقوبة بالرصاص تتجوّل في غرفتي، تفتح النافذة، ليقفز منها جبران تويني حاملاً أشلاءَه

بين كفَّيْه. من الباب، دخل الطاهر جاووت بمعطفه الكاكي نازف الرأس والكتف، ومن الحمّام خرج المخرج مصطفى العقّاد على حصان، وعلى كتفه خيام ونبال وسيوف، يسأل عن أرض ممكنة لفيلمه الجديد. كان الحصان يشرّ دما.. من خلف النافذة، لمحتُ "شون كونري" في زيّ صلاح الدّين خزينًا.

13ديسمبر

لم أُغمضْ عينَي البارحة حتّى كانت غرفتي مليئة بالجثث. فتحتُ هذا الصباح النافذة. لعلّ تلك الأرواح تخرج. أنظر في مخطوطات أساطير من العالم. أبتسم هازئًا. أُتمتم لروحي: منْ سيُترجم هذه الأساطير الجزائرية التي أحياها هنا؟

ها أنا ممدّد تحت الأرض، وعلى صدري عمارة كاملة، تضغط على قلبي كلّ يوم أكثر، لتحطّم ضلوعي، لتنبتَ حول القلب أعشاشًا من الصراصير والأحاسيس.

14ديسمبر

- جلستْ نسيمة الليلة أمامي بعيدًا في الركن. ضمّتْ ركبَتَيْها إلى صدرها. كانت عارية تمامًا. فرجُها الصغير يطلّ باحتشام. لم تعد نسيمة تخجل من عُريها كما السابق. أصبحتْ تدخل الشّقّة، وتتخلّص بسرعة من بنطلون الدجينز والجاكيت، وتبقى في التي شورت والبوكسير. على الرغم أن البرد يكون شديدًا أحيانًا، وتأخذ في السعال، لكنها تُصرّ على التّخلّص من بنطالها. تقول إنها لا ترتاح إلا هكذا.

الليلة في غرفة الخزانة الدافئة بالسخّان الكهربائي، نزعت نسيمة ملابسها كلّها. كنّا نحاول أن نتضاجع، لكنْ، اكتشفنا في لحظة أننا لا نريد. لا أرغب الليلة في ممارسة الجنس، ولا هي. قفزتْ من الفراش، وجلستْ هناك في الركن، وضمّتْ ركبَتَيْها إليها.

لماذا لم تسألني أبدًا مَنْ أكون؟ ولماذا أفعل هذا معكَ؟

سألتْني وهي تضع ذقنها على ركبَتَيْها. كانت تفتح فكَّيْها بصعوبة وهي تطرح هذا السؤال المفاجئ.

ليس من حقّي أن أسأل هذا السؤال؟ لكنني لن أمنعكِ إن تحدّثتِ.

بل لأنكَ تراني مُجرّد قحبة. قحبة تأتيكَ، لتُسلّي غربتكَ. تقطع معها بعض الليالي حتّى تعود.

لم أقلْ هذا.

أنا مَنْ تقول هذا.

رفعتْ رأسها نحوي. وهي تواصل: أنا. أنا مَن يقول هذا. ولستُ ألومكَ.

نسيمة، كفّي عن هذا الهراء.

نهضتْ فجأة. ارتدت ملابسها بسرعة، ورحلتْ.

لم أحاول مَنْعَهَا، ولا طلبتُ منها أن تبقى. تابعتُها فقط وهي تلبس وترفع شَعْرها وتشدّه بقلم الرصاص الذي يرقد في حقيبتها. حَشَتْ بنطالها الجينز في حذائها الجِلْديّ الطويل، وغادرتْ. سمعتُ وَقْع حذائها حتّى الطابق الأوّل.

جلستُ أُفكّر. ماذا يحدث لي؟ هنا أنا للعمل. هل يمكن لرجل في مثل سنّي أن يعيش في هذا المنفى وحيدًا؟ لكنْ، لماذا تنجذب إليّ النساء هنا، وكنتُ أعتقد أنني سأعيش وحدي، بلا أنثى؟

لكني وأنا أتأمّل الليلة ما يحدث لي متذكّرا كلام نسيمة. أجدني عاجزًا عن الإجابة. النساء اللواتي عرفتهنّ لا يبحثنَ عن جنس أيضًا. كنّ يهربنَ من أمور أخرى. أتذكّر كلام نعيمة وهي تؤكّد كلّ مرّة على صفة وحيدة فيّ، تأسرُها، وهي "الطفولة" التي على وجهي. كانت تطلب منّي أن أكونَ عنيفًا معها. أن أعضّها بقوّة من رقبتها. تضطرّ كلّ مرّة أن تلفّ رقبتها بإيشارب طويل. بينما نسيمة تُهرع دائمًا إلى حضني، لتختبئ مثل قطّة، وهي تتحمّل كلّ شيء من أجل تلك اللحظات. كان هناك شيء ما مُنكسرًا في عيون النساء هنا. وكانت تلك الطفولية في وجهي تعطيهنّ الأمان.

تذكّرتُ أنني فعلاً لم أكن أسأل عن أحوالهنّ، فقط أجهّز لهنّ الفراش. ولا نلتقي إلا على أكلة سريعة. وبمُجرّد أن تدخل واحدة منهنّ الشّقّة أتوقّف عن لقائها خارج الشّقّة.

هل أنا سيّئ لهذه الدرجة؟ سؤال كان يجب أن أطرحه على نفسي وأنا أرى خيالات النساء اللواتي مررنَ بفراشي. أليس غريبًا ألا أذكر أغلبهنّ. فقط نسيمة علق اسمها بذاكرتي ونعيمة، لأنهما تتردّدان أكثر من الأخريات، ومن المحتمل لأنني عرفتُهما قبل أن أصل الجزائر عبر الفايس بوك؟ أذكر أن نسيمة جُنّتْ لمّا قرأت على جداري أنني سآتي إلى الجزائر. كتبتْ لي بكلّ صراحة من امرأة لم تعرفني إلا عبر الإنترنت: "أنا حجرتُكَ. إن فكّرت بغيري سأقتلُكَ". لم أرَ من ذلك التهديد شيئًا، كانت نسيمة ترمي بنفسها في حضني، وتنام.

لماذا لم أمنعْها من المغادرة؟

قالت لي امرأة أخرى عرفتُها من سنوات إنكَ بقدر ما أنتَ شبقٌ بقَدْر ما تتحوّل إلى شخص بارد، تُشكّك أي امرأة في نفسها. بل إنكَ تدفعني إلى الانتحار أحيانًا عندما تنظر إلى هذه النظرة. أنظر إلى نظرتكَ في المرآة تبدو كَمَنْ ينظر إلى خربة في الطريق، داسها دون أن ينتبه.

كم أشعر بالقَرَف منّي الآن! سأدخل الدوش للمرّة الثالثة. يبدو أنني مُوَسْوَسٌ هذه الأيّام. أحكُّ جِلْدي في الحمّام، كما لو أنني أهمّ بسَلْخه. أشعر أنني مُصاب بلوثة. هناك شيء ما في دماغي. أشعر به يتحرّك مثل ثعبان ضخم. أشعر به يتململ. لماذا أشعر أن نسيمة ضاعت؟

عليّ أن أتوقّف عن هذا الجنون. سأدخل تحت الماء.

15 ديسمبر

خروجي من تونس إثر إضراب جوع فاشل. جعلَني أذرف حياتي هنا بشكل قاسٍ. أتعمّد كلّ يوم تحطيمها في محاولة للنسيان. أشعر أن هذا السقوط الشنيع في الجنس هنا شكلٌ من أشكال الاحتجاج على النَّفْس. أغطس كلّ مرّة في جسد مجهول، أبحث عن شيء ما. اكتشفتُ منذ مدّة أنه نفسي ذاتها. أبحث عن سرّ ارتعاشي، عن سرّ قبولي لذلك العرض الذي جعلني أقف ذلك اليوم أنزع حذائي وحزامي أمام ذلك الدَّرَكي البارد. مازلتُ أشعر أن يَدِي مثقلةٌ بحقائبي.

كنتُ أهيمُ هذا المساء في "حديقة تونس" القريبة من شقّتي محاولًا أن أفهمَ ما يجري. هل خروجي إلى هنا كان قرارًا سليمًا. هل يمكنني أن أتحمّل صور ابني التي تأتيني أحيانًا بعد إلحاح طويل؟ هل سيتحمّل هو غيابي؟ ماذا يعني أن أبقى هناك أتساقط كلّ يوم مثل شمعة في الحَرّ دون أن تُضيء شيئًا؟

ها أنا أقدّم نفسي قربانًا كلّ يوم لنساء بلا مؤخّرات، يأكلنَ جسدي، ويتركنَ حفّاضاتهنّ على مكتبي، أنظر في "الطحين" التونسي هناك للنظام. صخر الماطري سيّد الأخبار وكلّ شيء في تونس يخضرّ. البنوك، الصحف، الأصدقاء. اللون المميّز لجلالته. الأصدقاء الافتراضيون من الكَتَبَة الذين

فسخوني من قائمة الأصدقاء بسبب إضراب الجوع، مازالوا يكتبون الشّعر التافه نفسه.

اليوم ارتديتُ لباسا رياضيًا، وقرّرتُ أن أركض من"الأبيار" نحو "دالي إبراهيم". توقّفتُ بعد ربع ساعة من الركض. شعرتُ بالتعب. كنتُ أسعل طوال الوقت ماذا أفعل بنفسي؟ كنتُ أركض وأُدخّن المارلبورو الدزيري المضروب. حياتي كلّها مضروبة. نحو ماذا أركض؟ تساءلتُ. لا أدري. ستظهر لي في الرأس امرأة، أُسلّمها نفسي الليلة أيضًا، وأشرب على عمري براميل التانغو.

17 ديسمبر

كلّ يوم أتأكّد أن المكتبة الشخصية هي الشيء الوحيد الثابت في حياتي. كلّ شيء من حولي متحرّك، وقد يختفي إلا المكتبة التي ترافقني منذ طفولتي إلى اليوم. فقد زرع فيّ والدي فكرة المكتبة منذ كنتُ في العاشرة عندما تبرّع لي برفّ من رفوف مكتبته، لأضع فيها مقتنياتي من الكُتُب. وبعدها تحالفتْ معي أمّي، لكي أصنع مكتبة شخصية، فكانت تهرّب لي رفوف الخزانة الذي كانت تضع عليها أدباشها، مرّة لكي أرسم لوحات، ومرّة لكي أجعل منها رفوفًا لكُتُبي.

جعل هذا من الكُتُب أثمنَ شيء في حياتنا كأسرة، ولا نفكّر، إذا ما تيسّر حالنا، إلا في تجديد المكتبة، ولا نفكّر في شيء إذا ما قرّرنا ترك البيت إلى آخر إلا في الكُتُب كيف سنوصلها سالمة إلى البيت الجديد. الكُتُب بالنسبة إليّ كانت علاج الأمراض كلّها التي تصيبني، فألوذ بها إذا ما أُصبت بالصداع النصفي، أو الاكتئاب، فأنشغل بترتيبها وإعادة تصفيفها. وهي رفيق وحدتي، إن كنتُ في تونس أو في أثناء سفري. ها هي اليوم أنيسي الوحيد في الجزائر. تبدو لي الكُتُب وطنًا في أي مكان. لذلك أغار عليها كلّما تأمّل فيها الناس أكثر من اللزوم، إذا ما زاروني في البيت، وأشكّ بها أحيانًا، إذا ما وجدتُها منتفضة أو متحرّكة. وأشتاق إليها وأنا بالعمل، فأُهرع إليها، كما كنتُ أُهرع وأنا طفل إلى حضن أختي الكبرى.

لم أكن أُهرع إلى حضن أمّي التي كانت طوال الوقت في المستشفى كانت الكُتُب هي الحليب الثاني الذي لم أُفطَم منه إلى الآن.

صحيح أن علاقتي بالكُتُب والمكتبة تتوطّد كلّ يوم لأسباب براغماتية متعلّقة باشتغالي بالأدب والنقد والإعلام، فأحتاج دائمًا، لأفتحَ عشرات الكُتُب، ولكن أكثر ما يربطني بالكُتُب أسباب عاطفية.

تُمثّل لي المكتبة السَّكَن الحقيقي، أنا الطفل الانطوائي، وقد بدأتُ أرى اليوم علاقتي بها شبيهة بعلاقة ألبرتو مانغويل بمكتبته، أوعلاقة بورخيس بكُتُبه حتّى إنني أرى العالم كما يراه مُجرّد "مكتبة كبيرة". أُفكّر، إن المكتبة ليست مادّة، لا هي خشب، ولا هي ورق. إنها ذاكرة صاحبها. ذاكرة كاملة للهروب والهجوم. كائن من لحم ودم حريص أنا على احترامه وتغذيته طوال الوقت. ولو طلبوا منّي أن أصف نفسي، لقلتُ إنني مكتبة. أومُجرّد كائن ورقي كمعادل للكائنات العاشبة واللاحمة. أرضة أنا آكل كُتُبًا طوال الوقت دون أن أُتلفها.

فكيف تجرؤ تلك القحبة نعيمة، اليوم، على التّقرّز من كُتُبي التي اخترتُها كتابًا كتابًا.

شحال عندك داي ليفر. اووووف. كارثة أنت! زعفتني.

بمُجرّد سماع تلك البالوعة تتحدّث بذلك الشكل عن الكُتُب، قرّرتُ صرف النظر. لا يمكن أن أُضاجع امرأة تكره الكُتُب. الغريب أني عرفتُها في مكتبة. اكتشفتُ بعد ذلك أنها دخلت المكتبة خطأ، لتسأل عن هدايا سخيفة، رأت بعضها في الواجهة. وعندما سمعتْ لهجتي غير الجزائرية تباطأتْ، وأخذتْ تتظاهر بالنظر في الرفوف وتقليب الكُتُب. لم تنطل عليّ الحيلة، فهذه طريقة ساذجة ومكرّرة لإسقاط رجل أو امرأة، ولا نجد

بديلاً عنها دائمًا، لكنني لم أتصوّر أنها بتلك السخافة كلّها. انتهى الأمر بمحادثة قصيرة وتبادُل لأرقام الهاتف، عرفتُ بعد ذلك أنها تشتغل بمحلّ "نجمة" للاتّصالات. لم تمضِ أيّام حتّى وجدتُها بالغرفة أمامي، تتقزّز من الكُتُب المَرمية هنا وهناك. ومع أوّل زيارة، أنهيتُ العلاقة دون خسائر. قدّمتُ لها كأس كوكا كولا فاسدة انتقامًا من موقفها من الكُتُب، ولو كان عندي أي دواء، لوضعتُهُ لها في الكأس. انتابني إحساس بضرورة التّخلّص من هذه الكائنات غير المُجدية. كلامها كان كلّه رديئًا سطحيًا لا خير فيه، وشعرتُ أن الانتصاب الذي فتح لها الباب قبل قليل، ذهب إلى خبر كان. تظاهرتُ بأنني نسيتُ موعدًا، وطلبتُ منها المغادرة. حاولتْ أن تحتضنَني عند الباب، لكنني تراجعتُ. شممتُ رائحة فظيعة، قلتُ لنفسي: لعلّها رائحة كراهية الكُتُب!

ما إن خرجتْ حتّى فتحتُ النافذة، وانشغلتُ بتجميع الكُتُب، ووَضْعها في الحقيبة، وأغلقتُ السّحّاب. ودخلتُ الحمّام. كنتُ أريد التّخلّص من رائحتها تلك. أجلس منذ ساعة ملفوفًا في منشفة أكتب. عن امرأة نجمة. قرأتُ منذ قليل رسالة منها على الهاتف، تقول فيها إنها نادمة على مجيئها، وإنني أبدو فظًا، وإنها لا تُصدّق قصّة الموعد خارج البيت، وإنني لا بدّ تذكّرتُ موعدًا عاطفيًا. لم أردّ، لكن الدوش فعلاً جعل جسدي مشرقًا، ويبدو أن شهيّته قد انفتحت من جديد. ماذا يمكن أن تفعل بالجزائر غير أن تنيك وتتعذّب؟! أنتَ حتّى محروم من الخروج مع صديقتكَ بشكل حُرّ. لا يمكنكَ أن تضربها مثلاً على طِيزها في الطريق أو تقرع فرجَها من فوق الجينز في مطعم. عليكما فقط أن تُهرعا إلى الحفرة بكلّ احترام، ثمّ تتضاجعا في الظلام وراء نافذة "البلار فومي".

- خمّنتُ التضحية بامرأة لا تقرأ أمرًا جيّدًا للتفكير في امرأة تقرأ. لم

ينتظرْ دماغي كثيرًا، ليرى امرأة أخرى. ليس هناك غيرها سليمة. طالبة الطّبّ عرفتُها أمام مقرّ عملي، قالت إنها تعشق الكُتُب، وتحبّ لهجة التوانسة، وتحرُّرهم، ووضعية المرأة التونسية، وأشياء أخرى تافهة، كان عليّ أن أتحمّلها. الجزائر تتربّع فوق مرتفع. جبل من البرد. ولا أدري متى سأُغادرها. نسيمة كما قالت لي تسكن مبيتًا جامعيًا. بحثتُ عن رَقْمها. رَقْمها جيزي. حمدتُ ربّي أنه ليس نجمة، وإلا ذكّرني بتلك الكارثة. أرسلتُ إليها رسالة :"عندي حقيبة من كُتُب، تنتظر أن نختبئ فيها الليلة. ما رأيكِ؟" لم تمضِ دقائق حتّى وصلني ردّها بعربية، تشي بأنها فعلاً تحبّ الكُتُب: "ليس أدفأ من حقيبة كُتُب، نتوغّل داخلها، لكنني اليوم، أيّها المهبول التونسي، عند بيت العائلة في بجاية". قرأتُ الرسالة مرَّتَيْن. ليس فيها أيّ ثغرة للتفاوض. يبدو أن عليّ أن أسحب من البرّاد التانغو، وأرتمي في حقيبة الكُتُب وحدي.

21 ديسمبر

أقضي الليل، منذ مدّة، أقرأ الكُتُب، وأحاور الصديق (نصر حامد أبو زيد). هو في منفاه الهولندي، وأنا في منفاي الجزائري. كَتَبَ لي منذ قليل ردًا على توتّري. الكتاب الحواريّ الذي نُنجزه معًا تأخّر. وأنا أريد أن أُنجز شيئًا هنا في هذا الخراب. أستغرب أحيانًا من إصراري وغضبي، كلّما تأخّر العمل. ربمّا كنتُ أريد أن أُحاور نفسي، واخترتُ نصرًا قرينًا.

في العمل، كائنات صغيرة تترجم كُتُبًا لا تحبّها. فقط تُترجم كعمّال في مصنع أحذية. همُّهم فقط تركيب النعال آليًا. رؤيتهم وهم يعاملون النصوص، كما النعال يصيبني بالغثيان. أتقيّأ وأنا أراجع الكُتُب المترجمة. تجد البعض جيّدًا في ظاهره، لكنْ، لا ماء فيه. محنّطة تلك النصوص بلا حياة. كيف يمكن أن تؤثّر في أحد. فكّرتُ. ربمّا السبب فيّ أنا. أصبحتُ متوتّرًا وعصبيًا، أُعارك كلّ شيء. وصفتْني صديقة جديدة بأنني تفوّقتُ على عصبية الجزائري، وهي تجذبني من ذراعي في السوق أمام بائع الفلفل الأخضر الذي فتح الكلام بالحديث عن كرة القَدَم، بمُجرّد سماع لهجتي، انطلق يشكر معاضدة التوانسة للجزائر ضدّ مصر. فقد اندلعت تلك الحرب القذرة. عندما قلتُ له: "انتوما الزوز مصطكين ولعبة في أيدي السياسيين". لا أدري كيف خرجت الجملة من فمي. غضب، وأراد أن يردّ، فوجدتُ نفسي أخطب في السوق عن موضوع الكرة الذي تحوّل

إلى حرب بين شعبين. وأصبح تقييم الناس انطلاقًا من مشاركتهم في تلك الحرب من عَدمه.

تحلّق حولي الناس. وعلا صوتي كما العادة حدًا لا يُطاق، وفَهِمَ الناس أن البائع استفزّني، لأنني قلتُ له إنني لا أهتمّ بالكرة. أن تقول إنكَ لا تهتمّ بالكرة اليوم هنا يعني أنك شتمتَ الجزائري. كما لو قلتَ له إنه ليس صحيحًا أنّكم بلد المليون ونصف شهيد، وأن هذه العبارة جزء من الخطاب السياسي، ومن الدهاء السياسي، أطلقها عبد الناصر أو بورقيبة للتعريف بالقضية الجزائرية. أن تكون غير مهتمّ بالكرة، فأنتَ أكثر من معارض. أنتَ تعارض الشعب والحكومة والحيوان والنبات والحجر في الجزائر. خرجتُ من السوق. ارتميتُ في سيّارة "الشوفرلي". الكلّ هنا بالشوفرليي، لا أدري لماذا؟ مدّتْ إليّ الصديقة حزمة من الملابس. اكتشفتُ أنني في فانيلا، وأن تلك الملابس قميصي والجاكيت التي نزعتُها في المعركة. كنتُ في السوق نصف عارٍ، وأنا أصرخ في ذلك الخلق كلّهم. ظللتُ أنظر في المرآة وأنا أتابع وجه رجل غريب، يُشبهني قليلاً. رجل مُكفهرّ. تساءلتُ وقتها ماذا يحدث لي؟ هل يستحقّ الموقف أن أنزعَ ملابسي هكذا؟ ثمّ لماذا أصبحتُ أبدو مثل المجرمين؟ ماذا لو تقدّم من تلك الحشود واحد من الباعة، وطعنني بسكّين، كما حدث لي سنة 93 وأنا عائد من وجدة المغربية؟كنتُ وقتها أشتغل مهرّب ملابس، وكنتُ يومها أتحرّك بثقل، بسبب البناطيل الثلاث الجينز التي أرتديها فوق بعضها في مقاسات مختلفة. اختطفتُ من يدها القميص، ارتديتُهُ، وحمدتُ اللهَ أنني لم أتذكّر في فورة غضبي الموس الذي يرقد في جيب بنطالي.

البارحة أيضًا تعصّبتُ على (نصر حامد أبو زيد)، لأنه لم يكن في الموعد لمواصلة الكتاب الحواري على النت. اكتشفتُ بعد ذلك ما

حصل، فخجلتُ من نفسي. يبدو أنني لم أعد أسيطر على أعصابي التي تكاثرتْ، وانفلتتْ. كتبتُ منذ قليل رسالة، أشدّ أزره، فقد منعتْهُ السلطات الكويتية من دخول الكويت لإلقاء محاضرته رضوخًا لتهديدات جماعات سَلَفية. لم يعجبْني، فقط، ردّه حينما قال: قرار منعي من دخول الكويت على حذائي"، بل عندما طرح السؤال:"مَن الذي يملك أوطاننا؟". وها هو الآن يردّ. أفتح الرسالة، وأقرأ:

"عزيزي كمال:

شكرًا على رسالتك، وعلى اهتمامك.

أنا في مصر (المحروسة)، وأنني في ضجيج هائل، بسبب موضوع الكويت هذا. كل تحليلاتي ارتبكتْ، لدرجة أنني حتّى الآن لم أرَ من أهلي أحدًا، رغم أن هذه الزيارة السنوية هي أساسًا زيارة عائلية.

معذرة للتأخير.

نصر

قرأتُ رسالتَه. انهمكتُ أكتب هذه اليومية. لكني الآن تذكّرتُ تلك الصديقة التي كانت معي في السوق، والتي اختفت مع أنها وعدتْني أن تأتي بمضخّة، لننفخ الحشية الهوائية التي تركها المالك، لأنها أفضل من تلك التي ابتعتُها.

المشكل أنني أيضًا نسيتُها. نسيتُها تمامًا، كما لو كنتُ في السوق وحدي. اكتشفتُ أنني كنتُ طوال فترتي السابقة بالجزائر أعيش وحيدًا وأنا مع الناس حتّى مع النساء اللواتي كنّ في فراشي. هل أكلّمها الآن،

وأختلق لها أيّ عذر. الوقت متأخّر. الساعة الواحدة فجرًا. لا يمكن لامرأة أن تُصدّق رجلًا يُكلّمها في هذه الساعة، ليعتذر عن موعد. ستقول بكلّ تأكيد إنني اصطحبتُ أخرى. الأفضل أن أقول لها غدًا إنني سقطتُ في نوم ثقيل بسبب التعب. هل ستُصدِّق؟ وليكن. تُصدِّق أو تأكل بَظَرَهَا. ماذا سأخسر، إن لم تُصدّق، ربمّا سأرتاح من بعض الرياضة غير الضرورية، وبعض الروائح غير الجيّدة.

22 ديسمبر

لا شيء. لا شيء يستحقّ أن يُكتب، أو يُذكَر. لا طعام ولا بَطَرَ ولا نهد ولا شيء. ترجمة ترجمة ترجمة ردينة، وقلم أحمر يركض على الورق، يدمي الجمل، وبريد مُقفل.

23 ديسمبر

فتحتُ عينَيّ الساعة السابعة صباحًا. وجدتني في ركن من الغرفة أحضن المرتبة الهوائية المَطوية. تذكّرتُ ليلة أمس وأنا أنزع فمي من ثقب نفخ الحشية، وقد فشلتُ في ملئها بالهواء، ودخلتُ في حالة هيستيرية وأنا أُسدّد لها اللكمات. كنتُ أعتقد أني سأنجح في ملئها بالهواء، كما كرة البلاستيك، وأنا في التاسعة من عمري. احتضنتُ الحشية الفارغة، ونمتُ. وأنا أغسل وجهي قبل حين، انتبهت إلى خدَّيَّ المُتيبِّسَيْن. يبدو أنني بكيتُ وأنا نائم.

24 ديسمبر

تفقّدني اليومَ عبر الهاتف حبيب السائح. تحدّثنا حديثًا قصيرًا. في حديثنا حزنٌ مشترك، لكن ضحكتنا كانت صافية. هناك شيء من الطمأنينة أيضًا في هذا العَبَث. ليس بالضرورة أن نصل إلى شيء، المهمّ أننا حينما نمشي لا ندوس على البراز. أقدام أوديب الدامية لا يمكن أن تكون قَدَرًا صرفًا.

وقفتُ أمام النافذة، أتابع "البهية تتزيّن لجلادها"، كانت الجزائر مثل بلور نافذتي، نراها ولا ترانا.

25 ديسمبر

لا شيء على لا شيء.

26 ديسمبر

عدتُ الساعة الخامسة إلى البيت. اشتريتُ سمكًا. سردينًا. اشتهيتُ فجأة "التريليا". رأيتُ تلك الأسماك الحمراء تتراقص أمام عينَيّ، للأسف لم أجد إلا السردين عند بائع السمك. اشتريتُ رطلًا. رطلًا فقط يكفي، قلتُ لنفسي. فلا برّاد لي، والسمك لا يمكن أن يصمد خارج البرّاد. وأنا أنظّف السمك، اشتهيتُ معه فيلما لشارلي شابلن.

عندما يشتدّ بي الحزن ألوذ بأفلام شارلي شابلن. مع أن الحكاية تنتهي دائمًا ببكاء شديد بعد ضحك شديد. فقد فتحتُ البارحة ملفّ أفلامه على الكومبيوتر. كنتُ أعلم أنني سأبكي في النهاية. سأبكي كطفل كما المرّات السابقة إلا أنني فتحتُ الملفّ.

منذ سنة تقريبًا، لم أقرب سمكة. السردين بالذات. نظّفتُهُ كما اتّفق. قليتُهُ في الزيت، وجلستُ أمام الكوبيوتر أتابع شارلي شابلن. كان صحن السردين مليئًا بتلك الجثث الصغيرة السوداء التي تهرّأت في الزيت. لم أجد سميدًا، لألفّها به. النتيجة: تهرّأت. كانت شهوة السمك مباغتة، لذلك لم أتهيّأ لها جيّدًا. لكن شارلي شابلن كان طقسًا.

لطالما كنتُ أراني في شارلي شابلن، ولطالما قلّدتُ مشيته وأنا طفل

في المدرسة. حتّى في الجامعة، كان بعض أصدقائي ينادوني شارلي شابلن. منذ سنوات أيضا، أطلق عليّ كاتب مشرقي لقب "شارلي شابلن الرواية العربية". لم يكن ذلك الكاتب يعلم شيئًا عن علاقتي بشارلي شابلن. كان شارلي شابلن الوحيد الذي يجعلني أضحك حتّى أشعر بأوجاع في أمعائي، فأهرب من أمام التلفزيون. مع أنني كلّما راجعتُ سيرته، بَدَتْ لي سيرة مُرعبة.

منذ وصولي إلى الجزائر، عادت لي تلك الحاجة إلى مشاهدة شارلي وتقليده. كنتُ أقلّده في الغرفة عندما سقطتْ على رأسي تلك العصا التي تشدّ ستارة الحمّام، حوّلتُها إلى عكازة شبيهة بعكّازة شابلن. العزلة تجعلنا نتصرّف كالأطفال تمامًا. لا رقيب عليّ هنا. لا أحد يُجبرني أن أتصرّف كمدير. كم كرهتُ أن أكون مديرًا ورئيسًا. ليس أسوأ من أن تبدأ حياتكَ المهنية كرئيس. لذلك منذ أن أفتح باب شقّتي هنا حتّى أرمي الرئيس من على كتفي. أرميه مع المعطف. وأركض نحو الحمّام. من الباب أتبوّل عن بُعد كطفل محاولًا أن أُدرك المبولة. كنتُ أقذف الوسائد بقَدَمَيّ وقوارير الماء. أنا هنا أمام نفسي "لستُ ذا شأن" مثلما يقول فرناندو بيسوا.

هذا كلّه ليس مهمًا. ما يُرعبني الآن هو السمكات الثلاث. أنا على يقين أنني تركتُ البارحة بالصحن 5 سمكات. عندما أفقتُ هذا الصباح لم أجد إلا اثنَتَيْن. مَن أكل السمكات الثلاث، وترك لي شوكها في الصحن؟ أنا لا أترك شيئًا من السمكة. خاصّة سمك السردين، أهرسُها بأشواكها. حتّى رأس السمكة، علّمتْني نسيمة كيف آكله. أعادتْ لي قصّة الفوسفور التي قرأتْها منذ عشرين سنة. أنا على يقين أنني تركتُ في الصحن خمس سمكات البارحة قبل أن أنام. لا قطط لي في البيت!

سمعتُ صوت يوسف التاكسيس يُغمغم في أذني "لكن راك ساكن مع روح".

ابتسمتُ بصعوبة مستهزئًا من نفسي، واندفعتُ آكل السَّمَكَتَيْن. كنتُ آكلهما بطريقة غريبة ومتسرّعة. كانتا نيئتَيْن.

27 ديسمبر

الحياة بعد السادسة في الجزائر العاصمة مستحيلة. عرفتُ ذلك منذ سنوات عندما كنتُ أزورها ضيفًا. لا شيء تغيّر في الحقيقة. كنتُ أعتقد أن تونس مَنْ تنام باكرًا. الجزائر لا تصل إلى الليل. تنام الجزائر قبل أن يُغيّر سائقو التاكسي في تونسي أسعار عدّاداتهم. ذلك كلّه مؤشّر على أن استتباب الأمن خرافة لهذا الشعب، لم أجدها في القصص التي نترجمها في المعهد. لا يمكن أن نقيم أمن شعب، أغلق على نفسه أبواب البيوت الساعة السادسة أو السابعة. بعدها يصبح تعرّضك لأيّ مشكل مشكلتكَ الشخصية. ماذا تفعل في الشارع؟ لذلك ترى الناس وهم يعودون إلى بيوتهم أو يلاحقون النقل العمومي كالهاربين من القصف. هناك على وجوههم ذُعر. هم يعلمون ألا شيء سيحدث، لكنهم يستشعرون دائمًا بخوف قديم أن أمورًا كثيرة قد تحدث لهم. المغامرون واللصوص والمجانين فقط مَنْ يتجوّلون ليلًا بالعاصمة بهدوء. إن جعتَ وأنتَ بعد السادسة في الجزائر، عليكَ أن تصبر أو تأكل أطرافكَ. مع السادسة، هناك صوت واحد مُفزِع تسمعه في الشوارع ؛ صوت غَلْق الأبواب الحديدة. ستائر من حديد تضرب الأرض، لتجد نفسكَ محاصرًا بأسوار القصدير.

في الطريق، يتبادل سائقو الباصات والسّيّارات العبارة نفسها: مغلوقة قاع. فزحام الهاربين من الظلام بلا حدود.مع ذلك، هناك ملائكة ناعمة

قدر الإمكان تخرج في سيّارات الشوفرولي تتفقّد هذا الشّابّ المسكين الذي يكره كرة القَدَم في حُفرته تحت الأرض. وهو بدوره، يردّ الجميل، ويتحمل بعض العَرق، أو عشب العانة.

هنا يتحوّل الغريب إلى مأوى، تُهرِّب إليه النساءُ أحزانهنّ. لذلك لا ينتبهنَ إلى ضرورة أن تتزيّنّ له. يعلم الغريب جيّدًا أنه مجرد مَهْرب. وتعلم النساء أنه مُجرّد غريب، وأنه مُجرّد وقت.

بعد أن عدتُ من العاصمة، جلستُ أمام النافذة التي تطلّ على درج سحيق، لا أحد يخطو عليه، أنتظر. حتّى سقط الدرج في الظلام. خرجتُ أتمشّى في الرواق، علّ صوت خطواتي تُنبّه أحدًا، أو تُزعِج أحدًا. رأيتُ منذ يومَيْن فتاة تدخل الشّقّة المجاورة. ربّما تخيّلتُها. تكثر على الوحيد في عزلته استيهاماتٌ، تجعله يرى أشياء غريبة.

البارحة رأيتني قد خرجتُ واشتريتُ تفّاحًا من السوق. بحثتُ اليوم عن التّفّاح في كلّ مكان. لم أعثرْ له على أثر. الغريب أنني مازلتُ أشمّ رائحته.

29 ديسمبر

مازالت. مازالت رائحته. أُميّزها من الروائح كلّها التي تحيط بي. رائحة الفلفل ورائحة التونة ورائحة الزيوت ورائحة الشامبو الرخيص ورائحة مزيل العَرَق ورائحة العَرَق ورائحة المَنِيّ ورائحة الفروج والضراط القديم ورائحة جسدي ورائحة نفسي المصابة. غارقٌ في مصابي الروائحي.

أتأمّلني. أريد أن أفهم هذا الشيء الذي يحمل اسمي. جسدٌ مصاب بالعائلة والدِّين والأخلاق والأفكار والأطفال والأبعاد والحنين والسخط. جسدٌ محظوظ بالمآزق والمهالك يقف أمام صورته في بلّور النافذة السوداء. تغمره روائح التّفّاح المفقود.

30ديسمبر

لا شأن لأحد بما عشتُ اليوم. لا شأن لأحد حتّى هذا الورق.

31 ديسمبر

كشفتْ إحدى الصحف الجزائرية اليوم أن معدّل الجريمة في ارتفاع، وأن سنة 2009عرفتْ مقتل 376 شخصاً، وأن هناك أكثر من قتيل كلّ 24 ساعة. هذا وتؤكّد السلطات أن عدد العمليات الإرهابية في تراجع كبير، وأن البلاد تعرف حالة من الأمان والاستقرار الأمنيّ مقارنة بالسنة الماضية.

2010

1جانفي(*)

"الأسرة هي أوّل خلية إجرامية، ومنع الإجرام" قال جان جينيه لمحاوره نيغل وليامس على قناة BBC في برنامج القدّيس جينيه.

اليوم من المفروض أنّ الشعب الجزائري تخطّى 35.7 مليون. هذا حسب توقّعات جانفي الماضي.

لأوّل مرّة أدخل عامًا جديدًا خارج تونس. لا أحد اتّصل بي، ولا اتّصلتُ بأحد. أعبر سنة ثقيلة نحو سنة جديدة، وأنا هنا مختبئ من العام الماضي.

---

*) جانفي: يناير - كانون الأول.

2 جانفي

لم تأتِ نسيمة الليلة أيضًا.

3 جانفي

في طريقي إلى بن عكنون اليوم اعترضَني عشرات المشجّعين، يحملون أعلام الجزائر، ويهتفون بصوت واحد: وان تو ثري فيالالجري. كانوا يركضون في اتّجاه وواحد. يبدو أنهم يتّجهون نحو الملعب. مازالت أصواتهم ترنّ في أذُنيّ إلى الآن.

أعتقد أن إدواردو غاليانو قد فاته الحديث عن هذه الأناشيد في كتابه "كرة القَدَم في الشمس والظّلّ". صحيح أنه تحدّث عن كلّ شيء حتّى المشجّع والمتعصّب، ولكني أعتقد أن أهزوجة "وان تو ثري فيفا لالجيري" تجد لها مكانًا داخل هذا الكتاب الذي لم يفوّت شيئًا، وأراها في القسم المعنون بأغنيّات الازدراء التي تحدّث فيها عن تطوّر الأهازيج من الأغاني الترحيبية إلى الأغاني العنصرية.

هاتفتُ صديقة، أسال عن أصل" one two three " وين نعرف؟ عندكَ أسئلة غريبة.

أنا الغريب؟ و20 مليون منكم يهتف في الشوراع بأغنيّة، لا يعرف كيف جرت على لسانه؟

قطعتُ المكالمة، وأشعلتُ سيجارة. ظللتُ أُفكّر في الأمر. لا يمكن لهذه الأهازيج التي تدكّ الملاعب في كلّ مكان ألا يكون لها أصل. الاحتمال

الوحيد الذي قرأتُهُ في شبكة الإنترنت كان يقول إن الأغنيّة نشأت في قلب السياسة، ضمن الحركة الوطنية الجزائرية التي كانت تنادي بحُرّيّة الجزائر من المستعمر الفرنسي. وأن أصلها We want to be free أو want to free.

"نريد أن نكون أحرارًا" أو "نريد الحُرّيّة" هي العبارة نفسها التي جعلتْني أضحك آخر هذا الليل، وأسترجع هذه الحشود التي اعترضتْني هاتفة. بدتْ لي تريد كلّ شيء إلا الحُرّيّة.

تذكّرتُ تلك الشعارات التي كنتُ أتابعها من نافذة القطار المغاربي المتّجه نحو وجدة سنة 1993. أتذكّر جيّدًا تلك الجملة "تسقط الديمقراطية "، كانت مكتوبة بوضوح على جدار سور طويل.

"محاربو الصحراء" الآن حقّقوا ما يريدون، و"الفراعنة" أيضًا هناك، و"نسور قرطاج" يُحلّقون أيضًا في نعمة الديمقراطية البنفسجية. لو جمعنا هذه الوحوش والطيور كلّها سنجد قرودًا رضيتْ بأن تكون تسلية هذه الأنظمة.

أنا أيضًا أنعم بهذا الوجود الديمقراطي هنا، فقد أنعمَ عليّ بوّاب العمارة أخيرًا بردّ التحية.

ردّت نسيمة أيضًا. تعتذر. تقول إنها ليست على ما يرام.

4 جانفي

ذلك التّفّاح الضائع وجدتُه.. كان في درج من الخزانة. خبّأه قميص. قادني إليه سرب من الناموس. كان شيئًا مُقرفًا .. تفّاح متعفّن كجثّة إنسان كريم، أو فرج مصاب.

5 جانفي

الساعة العاشرة ليلاً. تجوّلتُ في شوارع الأبيار مع كلبي، وعدتُ الآن. تخيّلتُ أنني أمتلك كلبًا، وتجوّلتُ حتّى تعب، وتعبتُ، فعدتُ. "ما كانش واحد يعيش في دزاير وحدو وما يجنش". ون تو ثري فيفا لالجيغري.

6 جانفي

عندما أقرأ لوتريامون أتمنّى ألا يزورني أحد. هذا الملعون يقذف في رأسي وحشًا. أشعر به يتمدّد داخلي مثل الظّلّ. أشعر كلّ مرّة أنني مصّاص دماء. أشعر أن في داخل كلّ إنسان مستر هاردي. هناك وحش كامل. قاتل فظيع متأهّب لتمزيق مَنْ يدخل عليه عندما يصل إلى تلك المرحلة. لوتريمان كاتب شنيع. يجعل من قارئه عدوانيًا. عدوانية فطرية. عدوانية الحيوان خالية من الكراهية. معه عرفتُ أن هناك فرقًا، فرقًا بين عدوانية البشرية، وعدوانية الحيوان. الحيوان عدوانيّته مجانية. العدوانية وسيلة تعبير. إعلان عن وجوده لا غير. نادرون هم الرجال والنساء الذين يرتكبون الفظاعات دون سبب، ودون دافع. تلبية لحاجة وجودية فحسب. أشعر أنني قذفتُ بنفسي إلى هنا بالمجان في حالة من حالات المازوخية. أتلذّذ الآن بوجودي مع هذا القتيل. أشعر به يتحرّك في البيت، وأرى ظلّه على الحائط في كلّ مكان. وأردّد:

"شَعْره النحيل، من الصوف السميك،

يُقرقع برعب عبر الظّلّ

ومن الخلف، بضجّة مبحوحة وطويلة

تنبسط، وفقا للحجم والأجناس

بهائم الأرض والقبّة العالية للسماء"

غدًا صباحًا اجتماع عمل. اجتماع مهمّ قالوا لي ذلك، وأكّدوا. حول أساطير الشعوب. هاهاها. يا أساطير الشعوب التي أُلاحقها هنا! على أن أنام الآن. أعتقد ذلك.

لكنْ، من أين دخل ذلك الصرصار؟سأتخيّل أنه خرج، وأنام.

10جانفي

أن تعود إلى البيت مُبتلاً. ما المشكلة؟! لا مشكلة. لكن عودة رجل غامض، حتّى على نفسه، مُبتلاً إلى مثل هذا الجحر، فأمر مختلف تمامًا. لكنني لم أعدْ، الآن، غامضًا تمامًا على نفسي. أُفكّر بيني وبين نفسي، فأنا الآن ذلك الرجل الذي عاد إلى بيته مُبتلاً. ومعطفه الذي تحمّل تلك الأمطار كلّها التي تهاطلت عليه من محلّة الباص في آخر الشارع إلى هنا هو نفسه المعطف الذي سيرتديه غدًا في السابعة صباحًا. السّكّين الذي وضعه في جيبه لم يسحبه مرّة واحدة. لا أحد استهدفه. مؤلم ألا يستهدفَهُ أحدٌ. أنتَ لا تُحرِّك شهوةَ أحد، ليُعاديك عداوة حقيقية، تجعلكَ تسحب السّكّين الذي أقنعتَ نفسكَ تلك الليلة بوجوب حمله، فالوضع غير آمن. منذ وضعتَهُ في ذلك الجيب، صار الناس لطفاء. هل علموا بأمر السّكّين؟ أم هم بطبعهم لطفاء؟ لكنكَ شخص مَهوس ومجنون!

عليّ أن أضعَ المعطف على الكرسيّ قريبًا من السّخّان. سأقرّب أنا بدوري، وأواصل الكتابة. مضت ساعة وأنا أنظر إليه، وأتخيل حالتَهُ صباحًا على كتفي. لا يصلح هذا المعطف ليدخلَ تاريخ الأدب. يكفيه أن يُذكَر في هذا الدفتر الثقيل. لا هو معطف غوغول، ولا هو معطف المفتّش كوجاك. مُجرّد معطف اشتريتُهُ من سوق الحفصية للملابس المستعملة.

لكن هذا المعطف البسيط هو شريكُكَ اليوم في هذه الغربة، وهو

المعطف نفسه الذي ستضعُهُ فوق الغطاء بعد قليل، ليقيكَ البرد. مُتعود أنتَ بالمعطف.

أُفكّر أنني أتعثّر في كتابة الرواية. لا تتحرّك بسهولة. هل كانت فعلا الرواية الأولى ورطة؟ ها أنا غير قادر على كتابة قصّة قصيرة، تُخلّصني من هذا العقم. أكتب كلّ يوم بلا جدوى. كلّ ما أكتبه مساء يأتي الصباح ليفضحه. فضيحة هذا الصباح. الليل ستارة وسترة. لا أحد سيرى رئيس القسم في المؤسّسة العربية ينام بعد ساعات ملتفًا في معطفه نصف المُبتلّ. معطف لعبور ليل طويل. ليل الجزائر البارد. هذا الليل بليالي القرية. هناك حيث النقصان. حيث الأكل الناقص، والتدفئة الناقصة، والإنارة الناقصة، والماء الناقص. هناك حيث يرقد أبي، وحيث سأرقد، لم تكن عندنا تغطية كافية.

- كانت الأمّ تغطي رَقْم 10 بشرشف رقيق، وفوقه ترمي المعطف الثقيل للأب الذي ينام بعيدًا. منذ بدأ رَقْم 10 الفائض عن الحاجة يعرف الشتاء، وجد نفسه تحت معطف ثقيل. معطف متقاعد. لم يعد أحد يحمله. فالغطاء القطني الذي اشتراه هنا لم يعد يكفي. البرد كان أقوى من توقّعاته، لذلك عليه أن يخلّصه من البلل.

أن تعودَ إلى بيتكَ هنا مُبتلًا ليس أمرا بسيطًا.

اكتشفتُ الليلة بالصدفة أمام هذا البخار المتصاعد أمامي أنني أسكن منذ ديسمبر هذا المعطفَ. كنتُ أتكوَّر فيه كجنين، وأنام.

مَنْ حمل قبلي هذا المعطف المستعمل؟

لا أريد مزيدًا من الموتى في هذه الشّقّة. ليتني أتوقّف عن التفكير

أشعر أني أربّي كلّ ليلة كوابيس جديدة، أملأ بها دماغي الذي صار ثقيلاً أكثر من اللازم. أشعر كلّ مرّة وأنا في الحافلة الزرقاء بإغماءة. منذ أسبوعَيْن نزلتُ مضطرًا لأجلسَ على الرصيف. كانت نوبة الإغماء كبيرة. فكّرتُ أنه ليس عليّ أن أستسلم. جلستُ واتكأتُ إلى الجدار. لا أحد اهتمّ بي. يمرّ الجميع هنا دون أي انتباه لأحد. الكلّ بالكاد يحمل رأسَه الثقيل، ويبحث عن مكان آمن مثلي للإغماء.

مرّ وقت قبل أن أسترجع طاقتي. ربّما كانت حبّة الحلوى التي أهدتْها لي نعيمة منذ أيّام. خمنتُ ربّما نوبة سُكّر من قلّة الأكل. تذكّرتُ حبّة الحلوى. قريبًا من السّكّين الصغير، وجدتها.

عليّ أن أحمل دائمًا في جيبي بعض الحلوى. قلتُ لنفسي يومها بعد أن وصلتُ البيت. خرجتُ واشتريتُ كيسًا كبيرًا بـ05 دولارا ت، رميتُ حفنة منها في المعطف. في محطّة الباص، كنتُ أبحث كلّ مرّة على طفل، لأعطيه من حلوى المعطف. اليوم صباحًا وأنا أبحث في الكيس عن الحوى. كان الكيس فارغًا.

يأكل القتيلُ الحلوى أيضًا.

11جانفي

حمّى. أرتجف. هذا مكان سيّئ للموت.

12 جانفي

أعطس 5 مرّات في الدقيقة. عندما أعطس تتعانق الجدارن أمامي. أحيانًا أسمع عطاسًا من حولي أيضا.

13 جانفي

ما لاحظتُه وأنا أعيد تصفّح هذا الدفتر منذ ساعة. أنني لم أكتب شيئًا عن الجزائر فعلًا. كنتُ فقط أكتب انعكاس صورتي وانكسارها علىها. منشغل أنا في هذا الدفتر بتسجيل عزلة كاتب يمشي بين الناس. مشغول طوال الوقت بما وراء الجزائر. أراه عمري يتساقط هنا يومًا بعد يوم. أشرب التانغو، وأحشو القناني بالحزن. ليته كان في جيبي مسدّس عوض ذلك السّكّين الراقد في جيب معطفي. كم سيكون الأمر رائعًا وأنا أخرج إلى الشارع، سأُطلق رصاصة على رأس البوّاب القميء. وأواصل. سأقطف رأس حارس سفارة اليونان المحايدة. سأُزيّن رأس بانع الصحف بواحدة. سيُطلّ عليّ من وراء تلك النافذة الصغيرة. هل سيكفيني الوقت لأطير برأس أو رأسَيْن من تلك الأشياء الغريبة في تلك القمصان البيضاء؟

14جانفي

اشتريتُ اليوم من على الرصيف خاتمًا مهرّبًا أو مسروقًا. يبدو مثل خاتم لقاتل مأجور. وقفتُ في ساحة تمثال الأمير عبد القادر بشارع العربي بن مهيدي. نزلتُ إلى العاصمة في مهمّة للعمل.كان التمثال بائسًا هذا اليوم. أكره التماثيل الضخمة التي لا تنظر في عيني. التمثال نحته الفنّان البولوني ماريان كونييتشني. يبدو الأمير رافعًا سيفه المعقف في السماء. على قاعدة التمثال فرسان آخرون يشهرون سيوفًا أخرى. تراجعتُ لمقهى قريب. جلستُ أشرب الكابوسان، وأتابع الأمير. ذكّرني التمثال بتمثال ابن خلدون. اللون البرونزي نفسه مع فارق عميق. كان العلامة بشارع بورقيبة يحمل كتابًا في وجه الزعيم بورقيبة الذي كان مثل الأمير، يعلو حصانه في آخر الشارع قبل أن يختطف إلى حلق الوادي. يبدو أن قَدَرَ الجزائر أن تحمل السلاح. تُجبرها الحياة أن تحمل السلاح، كما أجبرت الأمير المتصوّف. يبدو تمثال الأمير غريبًا، ففيه تجمّعت صورة الأديب وصورة السلطة التي قَرْصَنَتْهُ.

يُجيبني زميل العمل الذي سألتُهُ عن حكاية التمثال: كان ماسونيا.

أتركه وأدخل مكتبي متسائلًا: كلّ شيء هنا رهين دولة ما بعد الاستقلال؟! أيّ احترام لهذا البطل عندما يُحرَم من تنفيذ وصيّته؟! فعندما توفيّ بدمشق 23 ماي 1883 دُفن بوصية منه بجوار الشيخ ابن عربي

بالصالحية، ولكن دولة البروباغندا ما بعد الاستقلال نبشتْ قبره، ورحّلت جثمانه إلى الجزائر عام 1965، ليُدفن في مقبرة العالية، مقبرة الشخصيات الوطنية والشهداء. لماذا يحرم النظامُ الرجلَ من تنفيذ وصيّته؟ هل كان المَنفى هو ما دفعه لكتابة تلك الوصية؟ ثمّ لماذا لم يَرِدْ في الوصية طلب إعادته للجزائر إذا ما استقلّت؟ألا تكون وصيّته موقفًا؟! هل هو سعيد اليوم وهو بين كلّ ما يُرمى حوله من جثث رسمية؟

أُفكّر الآن في ذلك العَبَث في أن تترك وصيّة. سأسأل (نصر حامد أبو زيد) السؤال نفسه. كم سيكون السؤال ثقيلًا، لكني سأُصغي لصوت المفكّر المهدَّد بالموت كلّ حين.

أتذكّر جان جينيه الذي أوصى بدَفْنه في العرائش المغربية التي عاش بها، وأحبّها، ورغم أنه مات بباريس، احترمت السلطات الفرنسية وصيّته. عندما مات جان جينيه سنة 1986لم يعدْ ذلك اللّصّ الذي كتب يومياّته، بل أصبح رمزًا أدبيًا عالميًا.

ليس أروع من أن يُوصي الواحد بحرْق جثّته، وأن يُذرّ رمادها من أعلى بناية حتّى لا تستغلّها أي سلطة، ولكنْ، حتّى هذا ليس ممكنًا، فنحن لا نملك أجسادنا، لا حية ولا مية.

خاتم القاتل منذ ساعة يتنقّل بين أصابعي. واسع مثل هذا الليل.

15 جانفي

- كسوف مركزي حلقي في أوبس هذا الصباح. يكاد يُقنعنا المعهد الوطني للرصد الجوّيّ أنها ظاهرة عرضية.

+ + +

"إذا لم تلعب، لن تفوزَ أبدًا".

"فكرة جميلة كامرأة جميلة، لن تدوم إلا بعض الوقت".

"أفضّل الاستماع لقصّة وغد أمريكي على قصّة إله إغريقي ميت".

"عندما يتحوّل الحبّ إلى واجب، تصبح الكراهية متعة".

كنتُ أحاول قراءة بعض الصفحات بالفرنسية للبشع بوكوفسكي عندما اقتحمَني هذا الأرعن، ليسألني بإلحاح عن موقفي ممّا يجري.

"كس أم أهلك وفلسفتك. أنت معانا ولا معاهم. يا أبيض يا أسود. بلاش فلسفة. باين انّك مع الجزائريّيْن، لأنك بتشتغل معهم، وساكن عندهم. أصلاً كلكم كلاب.بربر". كتب الصديق الافتراضي المصري السابق. وحَجبني.

16جانفي

لمحتُهُ. ذلك الظّلّ الطويل كان يدوسني بقدمَيْه، ورأسه بالسقف، وجسمه على كلّ الجدار الأمامي. مرّ بطيئًا وهو يتّجه نحو باب الغرفة. منذ أن علمتُ بوجوده أشعر أنه يسكن الصالون. اليوم دخل غرفتي.

17جانفي

مات أريك سيغال صاحب رواية قصّة حبّ- Love Story. مات اليوم في لندن، وسيُدفن هناك. قالت ابنته إنه عانى من الشَّلَل الرعّاش سنوات. فظيع أن تكون نهاية الكاتب بهذا المرض المُخجِل. هل ستظلّ الأفكار جريئة وقوية وهي تخرج من أصابع مرتعشة؟ قلتُ لنفسي وأنا أقرأ الخبر: لا أتمنّى هذا الموت في25 سنة من الرعاش، لا شكّ ستذهب بكلّ روح الكاتب. ليس الكتّاب كلّهم جون دومينيك بوبي. لكن ذلك مُحبِط.

يدفعنا الموت للنبش في أعمال الموتى. سأُعيد الليلة مشاهدة فيلم "Love Story" مودّعًا هذا العاشق الأمريكي الشّقيّ. قصّة أخرى للحبّ تسقط في الشَّلَل الرعّاش.

18جانفي

وردة مغروسة في شَعْر عانة. ليتها لم تتكلّم.

19جانفي

ظلام وبرد ورجل يشبهني يتمشّى في الغرفة أمامي، بظلّ قصير، وذيل طويل طويل، وعلى الرأس قرنان.

20 جانفي

"في حياتي نقطتا تحوّل كبيرتان؛ الأولى حين أرسلني أبي إلى أكسفورد، والثانية حين أرسلني المجتمع إلى السجن" لو كنتُ مكان أوسكار وايلد، وسألوني سؤالًا كهذا، لأجبتُ بلا تردّد هو لحظة اختطفتُ ذلك الحزام من تلك الحقيبة.

مع أنه لم يعد معي الآن، لكنْ، بمُجرّد أن أتذكّره أشعر برعدة.

اليوم عادت لي تلك الرعدة بعد دقيقة حوار في الفايس بوك.

-هل أنتَ كمال الرياحي الذي دَرَسَ معنا؟

‹لا أدري ربمّا. أين؟

‹ أنتَ كمال الرياحي من مجاز الباب. لماذا تُنكر؟

هكذا بدأ الحوار القصير. بعدها بلحظات، المرأة نفسها التي طلبت صداقتي حَجَبَتْني من عندها. بلوك مباشرة.

"لستُ هو، ربمّا تقصدين ابن خالي. لكنه مات".

لم أقل لها شيئًا غير هذه الجملة.

عادت بي الذاكرة منذ ساعات إلى ذلك اليوم البعيد. كان عمري 7

سنوات عندما عادت أمّي حزينة. كانت قد اختفت منذ أسبوع، وأخبرنا أبي أنها ذهبت لزيارة جدّتي. كانت جدتي تسكن مع خالي. وكان خالي يعيش وحده بعد أن كبُر أبناؤه، وسافر بعضهم للخارج.

وقفت أمّي في قلب الغرفة، ورمت الحقيبة الضخمة. كنّا نقف أنا وأخوتي صفًا أمام تلك الحقيبة الغريبة. لاحظنا أن أمّنا كانت حزينة أكثر من اللازم. لا أحد يفهم ما حدث. دفعتنا ببعض الكلمات أن نأخذ ما تريد من الحقيبة قبل عودة والدنا من العمل.

انقضّ أخوتي على الحقيبة. سحبوها، وأخرجوا أكداسًا من الملابس الأنيقة. أخذوا يتقاسمونها في ما بينهم، بينما ظللتُ شاخصًا في مكاني. كانت الحقيبة غريبة، وكلّ ما فيها غريب من بناطيل دجينز وقمصان ملوّنة وفانيلات وتي شورتات. كان ذلك كلّه يطاير بين أيدي أخوتي. أمّا أنا، فكأنّما كان هناك مَنْ يشدّني إلى الخلف. أشارت إليّ أمي بعينَيْها أن أتقدّم، ثمّ انفجرت بكاء. تقدّمتُ بثقل واستغراب ممّا يحدث. أدخلتُ يدي في الحقيبة دون أن أُنزل عيني من على أمّي. رأيتُها تبتسم بصعوبة وأنا ارفع حزامًا جلديًا مثيرًا من الحقيبة. صاح أخي الأكبر: "إنّه لي. هذا حزام كبير عن مقاسكَ." تمسّكتُ بالحزام. فعاد ينبش في الحقيبة.

تركتُ الجميع، وخرجتُ إلى فناء البيت. لففتُ حولي الحزام الغريب. كان فعلاً أكبر منّي. لكن جمالَ ذلك الحزام أسرني. يبدو مثل أحزمة أبطال افلام الويسترن. الحلقة الأمامية كانت منحوتة حديدية لحيوان يبدو مثل النمر أو التّنّين. حاولتُ أن أحمل الحزام مرّات. بعد أشهر، نادتْني أمّي التي كانت تتابعني من بعيد. سحبتِ "المخيط" من حقّةٍ بجانبها. حشتْهُ في الكانون تحت الجمر حتّى احمرّ الحديد. ثقبت به الحزام الجلدي. كان أوّل ثقب لأوّل سنة بالحزام الذي التفّ حولي.

اليوم مع هذه المحادثة يلتفّ عليّ الحزام من جديد. لكنْ، هذه المر
حول رقبتي.

"أنتَ كمال الرياحي من مجاز الباب. لماذا تُنكر؟"

أعدتُ النظر في الجملة.

قفلتُ الكومبيوتر، ودخلتُ الدوش. قضيتُ ساعة تحت الماء، أحاول
أن أهرب من السؤال.

عندما قالت لي أنتَ كمال الذي درس معنا مجاز الباب؟ تريّثتُ قبل
أن أُجيب، ودخلتُ على حسابها. كانت تبدو أكبر منّي بما يقارب ال ١٥
أو أكثر. لذلك أجبتُها إنه ربمّا ابن خالي.

لكنْ، لماذا حجبتْني. هل عَدَّت أن إجابتي تهرّبًا منها؟ لماذا يتهرّب ابن
خالي من هذه المرأة؟ ابن خالي واصل دراسته في فرنسا. كان يمكن أن
تقول: أنتَ كمال الرياحي الذي درس معنا في مجاز الباب، ثمّ سافر إلى
فرنسا؟ لكنْ، يبدو أنها لا تعلم ببقية مشواره الدراسي، وربمّا تريد أن تُثبت
التواصل عبر المكان المشترك. هل كلّ ما هو مشترك هو الدراسة فقط؟
هل إجابتي تتوجّب هذه القسوة كلّها في الرد؟ أسئلة كثيرة جعلتني
أتقلّب في فراشي بعد أن قرّرتُ النوم. حتّى الدش لم يفعل شيئًا. عدتُ
وفتحتُ مرّة أخرى بروفيلي. كنتُ أضع صورة بالأبيض والأسود، وكان
شَعْري قصيرًا مع أن ابن خالي كما عرفتُهُ من خلال الصور التي رأيتُها
يبدو بشَعْر طويل. الأرجح أن شَعْره الطويل كان مع تجربته الفرنسية.
واصل ابن خالي دراسة الإعلامية في باريس، في أواخر السبعينات وبداية
الثمانينيات. هذا يعني أنه كان بشَعْر قصير في الفترة الثانوية عندما كان
بمجاز الباب. أين درس مع تلك المرأة التي حجبتْني من ساعتين، لأنني

قلتُ لها إنه مات. اتّضحت الفكرة في رأسي. ولكنْ، لماذا سألتْني أصلًا؟ هل أُشبهه هذا الشبه كلّه؟

عدتُ أُفكّر.

- كان أبي لا يطيق خالي تلك الأيّام من طفولتي. قبيل اختفاء أمّي من البيت. ولكنْ، بعد عودتها بأسابيع. بدا خالي يتردّد على بيتنا. ما هو بين أبي وخالي هو ما يكون عادة بين طَبَقَتَيْن. أبي من طبقة دنيا فقيرة بعد أن فَقَدَ جدّي أملاكه كلّها، ولم يعد لنا إلا بستان الزيتون، وخالي من البرجوازية المتوحّشة، وأبي عنيد في فقره، وخالي شديد التظاهر، وأمّي بين الاثنَيْن تُخفق في التوفيق. لكن تلك العداوة اختفت فجأة بين خالي وأبي بعد عودة أمّي تلك اليوم حزينة. أصبح أبي مَنْ يسأل أمّي عن خالي، وأصبح خالي يأتي باستمرار. لكن الغريب أن خالي كان دائمًا يأتي، ويسأل عنّي. يُقبّلني ويعطيني الهدايا، ويُجلسني بجانبه. كان أبي يبدو متأثّرًا وأمّي باغتُّها أكثر من مرّة تبكي وهي تُجهّز الشاي لخالي. كان خالي يحضنني بقوّة وهو يغادرنا. تقول أمّي لأبي إنه كبُر بسرعة بعد الحادثة. لم أكن أفهم شيئًا ممّا يحدث حتّى قالت لي أختي يومًا:"أنت من نهارك أحرف." تقصد أنني طالع شؤم. لماذا أنا طالع شؤم؟ مرّة أخرى أجدني أنا رَقْم 10 طفلًا غير مرغوب فيه. هنا في هذه الشّقّة تحت الأرض بالجزائر تعود لي صورة الطفل الملعون. مع أن عائلتي قد فَقَدَتْ ثروتها قبل مجيء أخي الأكبر إلا أن اللعنة تتوجّه لي.

- قالت لي أمّي بعد سنوات إنني كنتُ سأُسمّى إبراهيم غير أن أختي الكبرى طلبت أن أُسمّى كمال. تلك الليلة لم تكن عادية أبدًا. فقد قامت أمّي تصرخ فيها :"لن يُسمّى هذا الاسم أبدًا. وهذا الملعون الذي لم يقبل الطبيب اليهوديّ بمجاز الباب، والذي استنجدتُ به أن يُنزلَه، لن أسمح

أن يُسمّى كمال على اسم ابن أخي." لكن أبي، وبعناد الطبقة المهمّشة الفقيرة، صرخ فيها أنه لن يُسمّيه إلا كمال، ولن يسمح أن يحرم أخاها شهوة ابنته الكبرى في أن تختار اسمًا لأخيها الصغير.

هكذا، إذنْ، وُلدتُ ملعونًا بعد أن نجوتُ من فكرة الإجهاض.

حدث بيني وبين أمّي شيء من التطبيع بعد ولادتي رغم أنني تسبّبتُ لها في مشاكل صحّيّة كبيرة حتّى إنني كنتُ أقضي أسابيع عند أختي الكبرى، لأن أمّي كانت تقضي تلك الأسابيع في المشفى، بسبب مرض الكلى. مع سنّ السابعة، وبعد دخولي للدراسة بسنتَيْن، حدثت حادثة الحزام. ومات ابن خالتي. لم أكن أعلم شيئًا عن موته، فقط التقطتُ حزامًا من تلك الحقيبة بعد تردّد، وظللتُ سنوات أُحدثُ فيه ثقبًا جديدًا حتّى تكون بمقاسي. بعد سنوات، وأنا أهمّ بامتحان الباكالوريا، فُتحَتْ ذكرى ابن خالي مع خالي، فقد زارنا في بيتنا الريفي، وكنتُ قد أطلقتُ شَعْري على كتفي، وما إن رآني حتّى انهار باكيًا. هُرعت إليه أمّي تحضنُهُ. يومها قيل لي إنني نسخة من ابنه كمال، وفهمتُ كلّ شيء.

لم أفهم كلّ شيء إلا بعد أشهر من تلك الواقعة عندما استُعيدتْ قصّة طالع الشؤم لمّا تخاصمت مع اختي. وشتمتُها. كنتُ مراهقًا أرعن، فأعادت عليّ سيرتي، وأن أمّي كانت تعرف أنني سأتسبّب في موت ابن خالي عندما سمّوني باسمه، وإنه لو متُّ أنا، لكان أفضل، فأنا لا أصلح لشيء أصلًا. سألتُ أصدقائي في القرية عن ابن خالي. أجابني الشّابّ الأكبر سنًا منّي: بقد مات بالأيدز.

تعرّقتُ يومها. وأنا أقلّب كلمة إيدز في رأسي. كان ابن خالي، إذنْ، من أوّل الضحايا لهذا المرض القاتل. قالت أمّي إنه أجرى عملية جراحية في

باريس، واحتاج دمًا، فقدّموا له دمًا موبوءًا. أعادوه إلى تونس، لم يعشْ إلاّ ستّة أشهر في السّرّ، تساقط أمام عائلته، ومات تحت فوبيا الإيديز وقتها. الأصدقاء يقولون إنه زير نساء، كازانوفا المنطقة، والتقط الفيروس. والدليل أن فتيات المجاز الباب والعروسة جُنّ به، فهرّبه أبوه إلى فرنسا، ليُبعده.

الليلة. وبعد هذه المعلومة عن هذه المرأة الغريبة، استعدتُ كلّ شيء. وكيف عشتُ سنوات في وهم ابن خالي للذي سرقتُ اسمه، فقتلتُهُ.

أنت كمال الرياحي من الممكن لماذا تُنكر؟

كلماتها تلتفّ حول عنقي. لماذا تُنكر؟ سؤال جعلني أنهض وأدور كالمجنون في البيت، لماذا أنكر؟

هل أنا فعلاً شخص آخر غير ذلك الذي قتلتُهُ؟

هل أسكن الآن مع قتيل، حدّثني عنه يوسف التاكسيست؟ أم يعيش داخلي قتيل سرقتُ اسمه، فسرق حياتي، وجعلني أعيش داخل حزامه.

هذه المرأة التي مَحَتْني وحَجَبَتْني؛ هل حَجَبَتْني؟ أم حَجَبَتْهُ؟

هل فعلاً ما يُرعبني الآن قصّة المرأة التي حَجَبَتْني؟ أم قصّة نسيمة التي تعاني هزالًا شديدًا من أسبوعَيْن، وكَتَبَتْ إليّ أوّل الليل إنها خائفة، وتنتظر نتائج الفحوصات مرعوبة من أن يكون الأمر متعلّقاً بمرض خطير؟!

21 جانفي

يوم للاكتئاب. صخرة على القلب، وخنزير برّيّ ثقيل على الكتفَيْن وأنا على الكرسي أنظر إلى الحائط الذي يتدفّق قَيْحًا كجسد موبوء.

22 جانفي

جحيم الانتظار؛ انتظار عروس إشارة حَملها. أموء في جحري بأمومتي المؤجّلة.

23 جانفي

اليوم لمحتُ مُخنّثًا بالجزائر. يمشي بطريقة مقزّزة كخيط سباغيتي، لم يَستوِ بعد. شيء مثل المخاط يسيل على الرصيف. لم أرَ قبل الآن مِثْلِيًا هنا. على الأرجح، يتحرّكون في حقولهم. تذكّرتُ شخصيّتي شكيرا. لم أعتنِ بمشيتها كما يجب. أُفكّر في الرجولة والأنوثة والحدود المرِنَة. أتذكّر عبارة هنري ميللر. أُهرع إلى اعترافات الثمانيني: معلّمة العبارة منذ سنوات. "نحن كائنات حيادية. لسنا رجالًا ولا نساء، ولسنا جنسًا خشنًا أو لطيفًا، لقد تساوى الكلّ، وأفرغ الكلّ من هويّته، وهو أكبر خطر يواجهنا، وهكذا فنحن اليوم بصدد، فَقَدَ إنسانيّتها".

أراه كلامًا خطيرًا من كاتب، ظلّ يُقنعنا طوال حياته بأنه صاحب الذِّكْر الذي لا يلين. ما الذي يقصد المجنون ميللر بهذا الكلام. هل يستثني نفسه هنا؟ أم يُقحم نفسه في ورطة التّحلّل والحياد؟ هل قرأتْ أنييس نن شيئًا من هذا؟

لكنْ، هل الحداثة والمدينة تُبقي على النوع في شيء؟ ربمّا التكنولوجيا أيضًا تجعلنا نتحوّل إلى كائنات رخوة متشابهة، تكتب وتنفعل وتكذب بالكفاءة نفسها.

24 جانفي

الليلة أيضًا قضيتُها في قراءة سالمر محاولًا أن أتجاهل ما يحدث حولي، لكنه منذ قليل رمى في وجهي بقيء الاستحالي. "من المستحيل أن يعرف الإنسان نفسه تمام المعرفة، إذ تظلّ ذات الإنسان، وبشكل ما، سرًّا مُغلقًا، بالنسبة له".

25 جانفي

خائفٌ هذه الليلة كفأر. خائفٌ من النوم. دقّاتُ قلبي غير عادية. فوبيا الموت وحيدًا عادت إليّ. سأظلّ على هذا الكرسيّ حتّى أسمع صوت آذان الفجر، وسأخرج أتمشّى. سيكون هناك أناس بالتأكيد يتّجهون نحو المسجد القريب. شيء غريب أن تسير مع القطيع، ولا تُدرك هدفهم. تذهب مع المُصلّين، وتفترقون، سيُصلّون كثيرًا صِدْقًا وكذبًا، بينما ستأكل أنتَ إسفنجًا، فطائر تونسية ساخنة. أراني فعلًا في حاجة إلى تلك الفطائر أكثر من مؤخّرة سترتفع في وجهي تسجد، مؤخّرة أكون سمعتُها قبل قليل في الطابور، تشتم وتقطع أعراض الناس، وتخوض في شؤون شتّى، مؤخّرة استعجلتْ وضوءها، فوقفت تُصلّي بنجاستها كلّها. سأسير وحدي نحو الفطائري. سفينج. بدأني الجوع، ومازالت ساعة عن الفجر. ودقّات قلبي طبلٌ في يدي معتوهٌ. سأنتعل الحذاء، وأستعد، ربّما تخلّصتُ من هذا النعاس.

27جانفي

كنوت هامسون. يَخبز لي جوعه منذ يومَيْن. تائه معه في مدينة كريستيانا يبحث عن قلم الرصاص الذي فَقَدَهُ، ليكتبَ مقالًا، يعيش به. ماذا أفعل هنا غير هذا؟ تائه بهذا القلم، أبحث عن مأوى. أُشهِرُ قلمي الآخر أحيانًا، لأصمدَ أكثر.

28جانفي

مع أنني أرى الموت من حولي في كلّ مكان، فإنني لم أرَ مقبرة هنا. لم تعترضْ طريقي كما كانت تعترضني في تونس أينما توجّهتُ. أين تختفي تلك الجثث كلّها التي تتساقط في صفحات الصحف؟ لماذا لم أرَ جنازة واحدة؟ هل يمشي الناس هنا في الجنازات؟ قد نموت ونُدفَن فينا. أجسادنا مقابر قديمة لأحلامنا التي ماتت منذ سنين. هكذا أشعر الآن أنني مقبرة لأكثر من شخص، هو أنا، في العصور كلّها، والأيّام كلّها. منذ كنتُ طفلاً وأنا أموت. في إمكاني الآن أن أراني على الأكتاف يطوفون بي. يطوفون بي في الضباب قبل أن يختفوا واحدًا واحدًا حتّى أبقى وحيدا، فأذهب إلى هنا ثقيلاً بجثّة جديدة، سَكنتْني.

29 جانفي

سكرتُ الليل، وسأنام النهار. كان طويلًا وثقيلًا مثل براز غُول.

1 فيفري (*)

في ساحة "أودان"، وقفتْ تواجهني بقرة وحشية، تقدّمتُ منها بقلب ذئب. قفزتُ فوقها، وغرستُ أنيابي في عنقها. أطلقتْ خوارًا، وسقطتْ، بَقَرْتُها، ومزّقتُ جلدها، أخذتُ في مضغ قلبها ورئتيْها. الريح تركض حولي كمجنون، وكائن ما يختبئ وراء حاوية القمامة يترقّب.

أرفع رأسي نحو السماء، وأصرخ بوجه مُلطّخ بالبراز، تحمرّ السماء، وأسمع حشرجة من وراء الحاوية وصوت ضراط. أرى بولًا يسيل. يركبني الزهو، لولا طعنة في الظلام باغتَتْني في جنبي، مزّقتْ أحشائي، غرقتُ بعدها في بركة لزجة.

أنهض. أجدني حيًّا. كما أنا أسند ظهري إلى الحائط من حمّى البارحة مثل مَنْ نفّذ فيه حكم الإعدام رميًا بالرصاص. أوجاع في الرقبة، وبقايا كابوس يسيل على جنبي. أرفع قميصي. جنبي أزرق. كدمة بشعة مكان طعنة السّكّين تمامًا. أتململ. يسقط دفتر اليوميّات بغلافه القاسي. كان مغروسًا في خاصرتي طوال ليل الحمّى.

---

*) فيفري: فبراير / شباط

2 فيفري

حمّى حمراء.

3 فيفري

أردتُ أن أناقش معها المسألة الأمازيغية. كنّا تواعدْنا. قالت إنها ستأتي تتفقّدني إثر الحمّى. كانت هناك بعض الأمور الغامضة في لقاء المرّة السابقة. وكنتُ أيضًا أريد أن أعرف منها رأيها في أمازيغية بوتفليقة. منذ أشهر، كان يصرخ في تزي وزي "أنا أمازيغي حُرّ". منذ مدّة، حدّثتُها عن طفولتي، فأحبّتْها. أضفتُ بعض الأكاذيب المحلّيّة. كلّ مرّة كنتُ أضيف شيئًا جديدًا. صارت سيرتي أكثر تشويقًا. بعد مدّة، لم أعد أعرف بالضبط ما أضفتُهُ، وما عشتُهُ. وفي الوقت نفسه، أعد أجد مكانًا لأكاذيب جديدة. الكذب أساس كلّ شيء في هذا العالم. كذب بنّاء. أنتَ تبني حياتكَ على نحو استعاري. لستَ حالة استثنائية، كلّنا نكذب ونحن نتحدّث عن أنفسنا. كنت أكتشف بسهولة تلك البقع واللطخات من الكذب في كل من عرفت في حياتي. الإنسان ليس حيوانًا سياسيًا، ولا حيوانًا ناطقًا. هو قبل كلّ شيء حيوان كاذب. نستولي على حيوات أخرى سمعناها أو رأيناها أو هي مسروقة بدورها، لنُحوِّل وجهتها نحونا. نحن حزمة من الأكاذيب كسبْناها بجهد جعل الناس تعتقد فيها، وأحيانًا تنسى أصولها. ليس الأمر بالهيّن. تمامًا مثلما يعتقد معظم سكّان شمال أفريقيا أنهم عرب، وأن حفنة الفاتحين العرب جاؤوا ليبيدوا ما وجدوه من سكّان أصليّين، ويطلقوا نسلهم الصافي. هل هذا مهم فعلًا أن نكون عشنا بالفعل ما قلنا إننا عشناها، إذا ما كنّا نشعر بذلك فعلا؟

هنا في هذه اليوميّات فقط أريد أن أكون صادقًا. ولماذا أكذب في يوميّات، لا بدّ أنني سأقذف بها في مَصبّ للنفايات، أو في بالوعة يومًا ما. فقط أحتاجها اليوم لأتماسكَ. أكتب في هذا الدفتر، لكي أشعر أنني أعيش أو أنتظر العيش. كثيرًا ما كنتُ أستغرق في بكاء طويل في هذا الجحْر تحت الأرض. اليوم بكيتُ بحرقة وأنا أتأمّل أصبعي الذي هشّمتُهُ. بكيتُ كطفل. شعرتُ للحظة أني طفل. تذكّرتُ عثراتي كلّها قبل أن أعثرَ هذه العثرة التي رمتْني هنا. أتفقّد روايتي التي تئنّ عوالمها دون أن تنغلق. أتأمّل جسدي في المرآة الصغيرة بالصالون. أدخّن سيجارة بالواقفة. أشعر أن يدي ترتعش. أحضن نفسي أمام المرآة. أحضنني بقوّة. كثيرًا ما فعلتُ ذلك. أختنق، أبكي من جديد، وأسقط على هذا الفراش أكتب.

ما فائدة ألا تكذب؟ إذا كانت اليوميّات تسجيلات لأيام الكذب نفسها. أن تعيش يومًا عاطفيًا كاذبًا ويومًا سياسيًا كاذبًا ويومًا مناخيًا كاذبًا، كيف يمكن أن تنجوَ في الكتابة من الكذب؟

هل فعلاً واعدتها تلك الأمازيغية هذا الصباح؟ أم أن ذلك كذب؟ ما الفرق بين أن تكذب وأن تتوهّم؟ إن كان الوعي فما الذي يجعلني أتأكّد الآن أنني واعٍ أو تحت تأثير هذا الضغط الذي يجعلني أرى أشياء كثيرة، لا يراها غيري، بعضها يتأكّد، وبعضها ينفي بعضه؟

صندوق بريد هاتفيّ يؤكّد أنه كان هناك موعد. لكنْ، من الغباء أن تثقَ في موعد جزائريّ. هنا عليكَ أن تعيش على نحو عَبَثي. أنتَ في الوجود صدفة قد ترميكَ أمام وزارة المجاهدين، أو لاغرون بوست. عندما تخرج من بيتك لا يمكن أن تتوقّع ما سيحدث لكَ أبدًا. العودة إلى البيت غنيمة بين أشخاص لا يرونك أبدًا. كم شعرتُ بهذا. لا أحد يرى أحدًا. الكلّ هائم في الملكوت، أو يهتف في مسيرة مجنونة. ون تو ثري فيفا لالجيغي.

4 فيفري

عظامي بلا مأوى أخبرني الميزان. غادرَني خلسة لحمي في زحمة حزني. عندما وصلتُ الحمّام، سقط عليّ سؤال وجودي أرّقني لساعَتَيْن. هل هناك من داع مهمّ لأعود إلى فراشي؟!!

لا أنتظر شيئًا من هذه الدنيا. لا شيء. أجلس مُقلّبًا تشكيلة المنتخب المصري برؤوسه الجميلة. دينا تحتجّ، وفيفي عبدو تعطي دروسًا في التاريخ، ومحمّد صبحي صار يؤمن بالدولة الوطنية. أخبار المشعوذين الجزائريّين في الصحف الصفراء يتنبّؤون بخراءات. زملاء العمل يتحدّثون عن ترقّب قَصْف مصريّ على الجزائر. فلماذا أرجع في هذا الليل إلى فراشي. ماذا سيحدث للأمّة أكثر لو بتْنا في الحمّام؟

أتأمّل قِفْلَ الباب. عندي يقين أنني سأرحل من هنا. هناك شيء ما لم أشتره يجعلني لا أستقرّ. البرّاد. البرّاد سيجعلني أستسلم. مادمتُ أشتري طعامي يومًا بيوم، فأنا عابر. البرّاد سيجعلني أثبتُ، وسيُدخل عالمي كلّه في التوحيد. سيجعلني أكتفي بعشيقة واحدة. ستطبخ لي أكلًا، وتضع في البراد. لن تغفرَ لي الأخرى، فالنساء يعرفنَ جيّدًا طبخ الرجال. لذلك سأنتهي إلى واحدة. ربّما تكون الأسوأ، وهذا سيجعلني أقبل بأن أضاجعها دون مزاج، وهذا يعني أيضًا أنني سأكون مَنفيًا ومُجبرًا على الانتصاب، كلّما أرادت صاحبة الأكل الذي بالبراد. البرّاد كارثةٌ، عليّ أن أستبعدَها، قلتُ لنفسي. كان يجب أن أحميَ أمري، فقد حدَّثَتْني سلمى عن ثلاجة صغيرة،

رأتْها مناسبة. سلمى نهداها تنهيدتا فأر. لا تظاهران تقريبًا. مُجرّد محاولة لا غير؛ عملية استنبات فاشلة، وقصّة البراد التي اقترحتْها عليّ صباحًا جعلتْني إلى الآن ضجرًا. بدتْ لي أنها ستستنبتُ نفسها هنا، وسأظلّ أنفخ في تلكما الهضبتيْن بلا جدوى. باردة كانت لا تتأوّه ولا تموء. لا تقول شيئًا. فقط تنظر إليك، وترمش كدمية ترفع كيلوتها كلّ مرّة تنزل فستانها، أو ترفع بنطالها. تأخذ حقيبتها، وتذكّرني أن أغلقَ النافذة، وأُفكّر في الثلاجة.

لا يكفي أن سلمى بلا نهدين، كانت أيضًا حقلًا من الغباوة. سلمى إعلامية معروفة في التلفزيون. كانت هنا صباحًا تؤكّد أن مصر سوف تقصفُنا، وأن علينا أن نفكّر في الأمر.

"أنتَ لم تسمعْ خطاب جمال مبارك. قال إن الأمر لن يمرّ هكذا، وأنه سيتحرّك. "فجأة تنقلب سلمى، تحلّل كلّ شيء: أنتَ لا تعرف أن سبب هزيمة مصر هو أنها كانت تحارب بأسلحة فاسدة. هكا ولا لالا؟ منذ ذلك الوقت، قرّر الخبراء أن يختبروا أسلحتهم بحروب صغيرة لصيانة الأسلحة، وحمايتها من التلف في سينا أو في السودان. حان موعد حرب الجزائر. يقولون إنهم سيُجرّبون الطائرات.

ثبتُّها إلى النافذة، وقلتُ لها :"دعيني أُجرّب أنا هذا المدفعَ التونسي في إطار حلف الدفاع المغاربي". كان الحلّ الوحيد لإسكاتها. للفوز بصمتها. سأتحمّل الدمية التي ترمش. أفكارها تُشعرني بالعُنَّة. أصبحتُ أراها في كلّ مكان. هنا فقط في هذا الحمّام لم أرَ تلك الرمشة التي أصبحت ككابوس، يُطاردني في الغرفة. سأظلّ هنا الليلة، أتأمّل تشكيلة المنتخب المصري. ليلى علوي في الهجوم، وفيفي عبده في قلب الدفاع، ويسرا في جناح أيسر، ناديا الجندي رأس حربة، والليل طويل، وسلمى بطائراتها خارج الحمّام تقصف كلّ مكان. هل مازال ممكنًا مغادرة الحمّام؟!

25 فيفري

لم يحدثْ شيء اليوم. اغتيل، فقط، المدير العامّ للأمن الوطني العقيد عليّ التونسي. فَتَحَ عليه النارَ أحدُ معاونيه العقيد المتقاعد أولطاش شعيب المسؤول عن وحدة عتاد المروحيات الخاصّة بالشرطة. اغتاله على الساعة 10.45 في مكتبه، وتُردّد الأخبار الأولى أن القاتل حاول الانتحار بإطلاق الرصاص على نفسه، لكنه نجا، ونُقل إلى المستشفى في وضعية حرجة.

أن يُقتَل المسؤول الأوّل عن أمن البلاد والعباد هنا برصاص بارد يجعلني أشعر بمزيد من الأمان. أحتمي برواية ياسمية خضرا خرفان المولى، ليكتمل مشهد الرعب.

يبدأ ياسمينة خضرا روايته بجملة قاتلة، تجعل من مشهد الغروب مشهدًا تراجيديًا أشبه ما يكون بخروج الروح إثر تلقّي رصاصة في الرأس. يقول:"تتخندق الشمس الآن خلف الجبل. تحاول بعض الخُصل الدامية، التّشبّث بالغيوم، دون جدوى. تنسلّ وتنطفئ في العتمة الزاحفة...."

أُقفل الرواية، وأعود إلى تأمّل غلافها في نسختها العربية. أتأمّل الصورة التي التقطها عمّار بوراس لشابّ مُقرفص في أعلى الجبل، يحتضن كلاشنكوفًا، وعيناه على الطريق في أسفل الجبل، حيث بعض السّيّارات

المدنية تمرّ عبر طريق ضيّقة، تفتح صدر الجبل إلى نصفَيْن. التقط المصوِّر الصورة من خلف الشّابّ، فلم يظهر منه إلا بدلته الجينز، وحذاءه الرياضي البالي، وقطعة السلاح المُطلّة من حجره. مثل قنّاص أفلتتْ منه فريسته، ينظر الشّابّ إلى الطريق الناجية بالسّيّارات الثلاث. صورة بالأبيض والأسود لرجل مُسلّح بين الجبال الميتة في الظلمة ينظر طريقًا، ليست له.

سقطتُ من جديد في قرية "غشيمات" الناعسة في الغياب، حيث يتنافس شبّانها لنيل حظوة إحدى فتياتها قبل أن يعود إليها أحد أبنائها المتطرّفين، ليقلب القرية المسالمة إلى أرض للرعب، ويُحوِّل فتيانها العشّاق الحالمين إلى قَتَلَة، ينشرون الموت والدماء في كلّ مكان.

فرقعة قوية قرب النافذة، جعلتني أرمي الكتاب من يدي، تلتْها أخرى وأخرى تحت الباب. صوت المفرقعات مثل صوت القذائف. حملتُ الحشية كما قيل لي، ووضعتُها على الباب الخشبي. مقتل عليّ التونسي ستكون له تداعياته حتمًا، فهذا الرجل رغم ما يُروَّج عنه من حكايات، كضلوعه في عمليات فساد كبيرة، إلا أن لا أحد يشكّ في أنه منذ تسلّمه الأمن في حكومة زروال إلى اليوم، أمكن له من محاصرة النشاط الإرهابي، والتقليل من وطأته خاصّة في العاصمة والمُدُن الكبرى.

ورجَّحتْ إحدى الفضائيات الإخبارية أن تدخل الجزائر في فترة خطيرة، وسلسلة من الاغتيالات، تستهدف الرؤوس الكبرى في الحكومة، خاصّة بين الإخوة الأعداء؛ رجال الداخلية ورجال الجيش.

يُقال إن العقيد عليّ التونسي كان صديقًا لقاتله. تذكّرتُ مقتل توماس سنكارا الذي اغتاله صديقه، ثمّ ابتسمتُ، فلا وجه شبه بين عليّ التونسي المتّهم هو الآخر بالرشوة والفساد وبين سناكارا غيفارا أفريقيا. ربمّا القاتل

القريب. القاتل الصديق. هو الذي دعاني إلى تذكّره. ها هي عبارات "نيران صديقة" تطفو على ذاكرتي، وتُحوِّل الليلة السوداء إلى فضاء للسخرية. السخرية تنتعش في أزمنة الحرب. تعيش السخرية في الظلمة.

تواصلت أصوات المفرقعات، وبدأتُ أشكّ في أمرها. لبستُ معطفي، وأعدتُ الحشية إلى مكانها، وفتحتُ الباب، وخرجتُ. في الرواق، سمعتُ ضحكات، تفقّدتُ السّكّين الذي وضعتُهُ في جيبي وأنا أهمّ بالخروج. وتقدّمتُ من الدرج. صعدتُ الطابقَيْن، لأصل إلى الخارج. رأيتُ رجالًا يُطلقون شماريخ ومفرقعات. سألتُ أحدهم "ماذا يجري؟ هل تحتفلون بمقتل عليّ التونسي؟" انفجر ضاحكًا، ونادى جاره، ليرويَ له ما قاله جارهم التونسي. كان صاحبه من المُلتحين، يلبس القميص القصير تحت الركبة بقليل. رمقَني بنظرة قاسية وهو يُنصت لكلام صديقه، ثمّ قال: "ألا تحتفلون أنتُم في تونس بمولد النبي صلى الله عليه وسلّم؟" ردّدتُ وراءه: "صلى الله عليه وسلم". "أم أن بورقيبة نساكم في دينكم"؟ أكمل جملتَهُ في قسوة أشدّ.

ابتسمتُ في محاولة منّي للتخفيف من توتّره، وقلتُ:"لا. نحن نحتفل بأكل العصيدة وزيارة جامع عقبة بن نافع بالقيروان. هل فرقعة هذه الشماريخ المستوردة وهذه المفرقعات الضخمة سُنّة؟ أم...؟"

تركني، وعاد يُجهّز مفرقعاته الصاخبة، يطارد بها النجوم، ويُوصِل فرحتهُ إلى إلهه البعيد.

26 فيفري

قمتُ باكرًا. التهمتُ بيضة مسلوقة بالفلفل الأسود، ورميتُ الثانية بعد أن وجدتُها فاسدة، شربتُ ما تبقّى من قارورة الكوكا كولا حتّى لا أُصاب بالغثيان. دخلتُ الدوش، وأخذتُ حمّامًا سريعًا. شعرتُ بتحسّن، وبزوال الحمّى. اتّجهتُ نحو الباب، فتحتُهُ بصعوبة، فقد خرب القفل، وأصبح المفتاح يدور في الفراغ. أحيانًا أشعر نفسي مثله تمامًا، أدور في الفراغ، صعدتُ السلالم بسرعة راكضًا. أردتُ أن أشتري بعض الصحف، لأعرف أخبار اغتيال البارحة، تفاجأتُ بالخلاء، لا أثر لبشر في الشارع، باستثناء حارس سفارة اليونان الذي يطلّ من خلف النافذة الصغيرة. بعد نصف ساعة من البحث عن محلّ مفتوح، عدتُ خائبًا إلى البيت، فقد كان يوم الجمعة، ويوم الجمعة يوم حزين هنا، لا حياة فيه. يوم للصلاة، هكذا قيل لي، لا معاملات ولا حركة، لا بيع لا شراء، القرآن يتصاعد من كلّ مكان، من تحت الأرض، من السماء، من الشقوق، من تحت الحجر، ومن خلف الشجر. تذكّرتُ أني قبل يومَيْن بحيدرة، ظللتُ أنتظر لنصف ساعة أمام محلّ لتبديل العُملة. تاجر العُملة بالسوق السوداء كان يُصلّي، لذلك بقيتُ مع أربعة آخرين، ننتظر انتهاءَهُ من صلاته الطويلة. الغريب أني سمعتُهُ يقول لأحد زبائنه بأن الدولار بتسعين، يعني 100 دولار بـ 9000 دينار، وعندما غيّر لي، وجدتُ النقود ناقصة، فقلتُ ساخرًا: "ربّي يتقبّل منك صلاة مقبلة. لقد نسيتُ عندكَ ألف دينار"، أعطاني الورقة مرتبكًا

دون حتّى أن يتثبّت إن كنتُ صادقًا أم لا. أكّد لي ارتباكه تعمُّده الغشّ. هكذا عاد من صلاته. وهكذا عدتُ متذمّرًا إلى البيت، التقطت كتاب Signes de Vie لفيليب لوجون، وصلني منه عن طريق الزميلة الفرنسية سيسيل غولت التي بدأتْ في ترجمة فصول روايتي المشرط إلى الفرنسية بعد أن فرغتْ من ترجمة قصّتي القصيرة يوسف إلى الإنجليزية.

أحسستُ بضيق بعد قراءة صفحات قليلة. كنتُ في حاجة إلى سماع صوت ابني هارون. طلبتُ أمّه. نظرتُ في الساعة. كان موعد نوم هارون، وهاتفها لا بدّ في وضع صامت، لذلك لم تنتبه. هي تتابع بين الحين والآخر الشأن الجزائري. ربمّا لو سمعتْ بمقتل عليّ التونسي من الجزيرة، أو أي قناة أخرى، ستُصاب بالفزع. أعدتُ الاتّصال بها بعد ساعة، حدّثتني عن هارون، وعن لعبه مع جدّه في ليلة المولد النبوي، بدتْ لي لم تسمع بأمر الاغتيال يبدو. طمأنتُها أن الأوضاع جيّدة جدًا، وأننا في أمان، وأن العمل رائع، وأن العالم من حولي كلّه متعاون. انقطع الخطّ وأنا أُوصيها بأن تُقبِّل لي هارون.

عدتُ إلى الكتاب، الجمعة يوم جيّد للقراءة، ولكن حاجتي للصحف ظلّ يُؤرّقني.تذكّرتُ تلك الجريدة التي اشتريتُها إثر وصولي للجزائر منذ أربعة أشهر، كانت لـ"جزائر نيوز" ليوم الثلاثاء 6 أكتوبر 2009، كنتُ اشتريتُها لأطّلع على ملحقها الثقافي الذي سمعتُ عنه، واكتشفتُ بعد ذلك أنه تنطبق عليه العبارة الشهيرة:"أن تسمعَ بالمعيدي خيرٌ من أن تراه"، ورغم ذلك، فقد احتفظتُ بالصحيفة، بسبب خبر غريب، نُشر في صفحة الأحداث. بحثتُ عن الصحيفة قبل أن أكتشف أنني ألصقتُها على المرآة، وقفتُ، قرأتُ العنوان:

"بومرداس/سكّان" بوظهر" بسيدي مصطفى يُغلقون الطريق، ويطالبون بتوفير الأمن".

لا يمكنني إلا أن أُسجّل هذا الخبر، أو جزءًا منه في هذه اليوميّات:

"أقدَمَ، صباح أمس، سكّان قرية "بو ظهر" ببلدية سيدي مصطفى على غَلْق الطريق الرابط بين سيدي مصطفى وزموري، احتجاجًا على غياب الأمن في قريتهم التي يجد فيها الإرهابيون ضالّتهم، حيث يتنقّلون في القرية بكلّ حُرّيّة. ومؤخّرًا تمكّن سكّان القرية من توقيف إرهابي، حاول اغتيال مُقاوِم بالقرية.وقال ممثّل المحتجّين في اتّصاله بـ "الجزائر نيوز" إن معاناتهم تزداد حدّة في آخر النهار، بسب انعدام الانارة العمومية، وغياب الأمن، وهو ما يفسح المجال، حسب رأيه، للجماعات الإرهابية للتّنقّل بكلّ حُرّيّة، وتنفيذ اعتداءاتها ضدّ الأبرياء". هكذا، إذنْ، ينزل أهالي القرية، ويقطعون الطريق طلباً للأمن، وهم أنفسهم الذين قبضوا على الإرهابي"بويرة بوعلام" الذي جاء لاغتيال أحد المقاومين!

منذ ذلك اليوم، قرّرتُ تجنُّب قراءة الصحف حتّى لا أُصاب بالسويداء. ولم يعد السّكّين يفارق جيب بذلتي أو معطفي. يومها لم أنتبه إلى الصورة التي كانت تحتلّ نصف الصفحة من أعلى للعقيد عليّ التونسي تحت عنوان طويل"حركة في سِلْك الأمن مسّتْ أهمّ الولايات التي تعرف مشاكل أمنية".

ويروي الخبر أن عليّ التونسي قام بحركة تغييرات واسعة في سِلْك الأمن الوطني، مَسّتْ بالدرجة الأولى الولايات التي تعرف مشاكل أمنية، حيث تمّ إنهاء مهامّ رئيس أمن ولاية الجزائر، وتمّ تعويضه برئيس أمن ولاية "تزي وزو"، وقام التونسي بإنهاء مهامّ 15 رئيس أمن ولاية...

هذا، إذنْ، عليّ التونسي الذي قُتل البارحة برصاص معاونه. الصفحة نفسها التي احتفظتُ بها لخبر اعتصام أهالي "بو ظهر" تحمل ربمّا سرَّ

مقتل عليّ التونسي. تُروَّج أخبار حول مقتله تقول بأنه كان يُجهِّز لإقالة قاتله الذي ثبتَ تورُّطه في قضية فساد كبيرة، وأن هذا الأخير ذهب إليه، ليستفسر الأمر، ولمّا واجهَهُ بالأدلّة، جُنّ جنونه، وأفرغ فيه مسدّسه.

الانغماس في الشأن الجزائري يصيب المرء بالاكتئاب والقَرَف. لذلك عليّ أن أهرب إلى القراءة، أحتاج إلى تطهير ذاكرتي قبل النوم. ربّما الأفضل أن أستحضر ابني وهو يلعب فوق صدري. ها هو يشدّني من شَعْري، نتعب ونسقط فوق الأريكة، نحتضن بعضنا، ونحن نضحك.

27 فيفري

البارحة قرّرتُ أن أُعيد قراءة كتاب فرانز فانون"بشرة سوداء...أقنعة بيضاء".

"أنا لستُ حبيس التأريخ، ولا يجب عليّ أن أبحث عن معنى مصيري وقَدَري.عليّ أن أتذكّر في كلّ آن أن القفزة الحقيقية تكمن في إدخال الإبداع إلى العالم. فأنا أُبدع بلا حدود، في العالم الذي أسير فيه. أنا متضامن مع الوجود على قَدْر ما أتخطّاه."

ليت الجزائريّيْن يقرؤون هذه العبارات لفانون، يفهمونها، فهو لا يخاطب الزنوج فقط، بل كلّ إنسان سقط في عبودية التاريخ والشعب الجزائري برمّته سقط في هذه العبودية للماضي، ومثله الشعب المصري، حتّى باتا يتنفّسان من أتربة القبور؛ قبور شهداء الثورة، وقبور الفراعنة. الأنا المتضخّمة تجعلهم يسقطون أكثر في الجاهلية، وفي الابتذال. ويخرجون شيئًا فشيئًا من التاريخ. فطُوبى للأمم التي لا غاز عندها، ولا بترول.لا فراعنة عندها، ولا شهداء.

الثورة والثروة أساس التخلّف هنا، ومنبع الكسل والتّعصّب والفساد والتّطرّف، وهو ما يُجهّز أرضية خصبة للإرهاب الثقافي والدِّيني والسياسي. الشعوب المنشغلة بغدها شعوب لم تعرف التّطرّف، لأنها مُحصّنة من

مرض تضخُّم المصران. هنا عرفتُ أن هناك شعوبًا عسيرة الهضم، أفسدتْها عاداتها في التفكير.

أتذكّر قول نيتشه على لسان زاردشت:"إن بعضهم يتحدّى البعض، ولا يعلمون على أي شيء يختلفون، يأخذ بهم الغيظ كلّ مأخذ، وقد غاب عنهم سببه، فلا يسمعون إلا صَفْصَفَة قلوبهم، ورنين دنانيرهم !"

أحيانًا أقول ما الذي جاء بي إلى هنا، وأنا الذي عشتُ تجربة الموت على الحدود المغربية الجزائرية في صيف 1993، ونجوتُ من الذبح بأعجوبة؟! لم أتوقّف عن زيارة الجزائر بعد ذلك، ولا رفضتُ دعوة من أي مؤتمر علمي أو أدبي، فَلَبَّيْتُ دعوات من قسنطينة التي لم أرَ فيها جسورًا معلّقة، بل أحلامًا مُعلّقة، وحياة مُؤجّلة، لَبَّيْتُ دعوات أخرى من الجزائر، ومن وهران، ومن "بشار" في أقصى الجنوب الغربي. وكان ذلك في سنوات القتل الحُرّ. كان ذلك محبّة للجزائر ولأدبها الذي يعيش اليوم انحطاطه الأكبر، فباستثناء بعض الكتّاب الذين يُعدّون على أصابع كفّ اليد الواحدة لم يعد للأدب الجزائري من أَلَقٍ، ولا من معنى، وسقط في الاستعجال، أمّا النقد، فقد قضى نحبه منذ زمن، وأجهز عليه نسل عبد الملك مرتاض.

أُعيد السؤال على نفسي: ماذا أفعل هنا؟

يأتيني صوت هيجل من فينمولوجيا الروح "إن الفرد الذي لم يُعرِّض حياته للخطر، يُمكن الاعتراف به حقًا كشخص، لكنه لم يبلغ حقيقة الاعتراف هذا بوعي ذاتيّ مستقلّ".

سأُكمل رواية ياسمينة خضراخرفان المولى. خضرا مكروه هنا، لا أدري لماذا؟ كلّ كاتب جزائري يكره الآخر، وإذا وجدتُ كاتبًا يقول كلامًا جيّدًا في كاتب آخر، فتأكّد أنه يسانده في كراهيّته لثالث. الكلّ يكره الكلّ هنا.

بينما تحوّلتْ سنة "الجزائر عاصمة للثقافة العربية" إلى وليمة بين الناشرين، فراحوا يطبعون نصوصًا غاية في الرداءة، أغرقوا بها السوق، لتُعبِّر خير تعبير عن أزمة الأدب الجزائري اليوم.

سألتُ الجزائريّيْن مَنْ تُحبّون من كتّابكم، فلاذوا بالصمت، حتّى محمّد ديب وجدوا ما يُشرَّع، ليكرهوه، وكاتب ياسين أكله الجحود، وأبناء بن عكنون لا يعلمون أنه كان بينهم يومًا صاحب نجمة، وهو إلى الآن غير مُترجَم ترجمة كاملة رغم أن إنتاجه محدود العدد. الطاهر وطّار يعيش أوضاعًا صحّيّة خطيرة، ورغم حصوله منذ أسابيع على جائزة العويس، لا أحد يهتمّ به، فقد انشغلتِ الصحف والإذاعات بمعركة المصير بينهم وبين المصريّيْن حول مقابلة كرة قَدَم. ثقافة الرّجل وثقافة الرأس لا تلتقيان. أعلم جيّدًا أن الوضع بتونس هناك ليس أفضل حال.

ها هو عليّ التونسي يتلقّى رصاصة في فمه من صديقه الأقرب الذي سبق وعيّنه في منصبه رغم تقاعده. العقيد لا يتقاعد هنا.

يتزامن مقتل عليّ التونسي مع المولد النبوي الشريف الذي يُستقبَل هنا بالرصاص، وفي ليبيا بالتكفير.

أعلن العقيد معمّر القذافي "الجهاد ضدّ سويسرا"، نعتَها في خطابه ببنغازي بـ"الكافرة الفاجرة"، وطالب المسلمين كلّهم بمُقاطعتها، وعَدّ كلّ مَنْ تعامل معها كافرًا وضدّ الإسلام. يا سلام. أعلن القذافي في خطابه أنه سيطرح على قمّة المؤتمر الإسلامي بالقاهرة تصوّرًا للعالم الإسلامي، يجعل منه اتّحادًا إسلاميًا، وقوّة إسلامية اقتصادية وعسكرية، على غرار الديانات الأخرى. جاءك الفرج، أيّها المسلم الشقي من طرابلس الغرب. كم اتّحاد بناه القذافي ليلًا، وهَدَمَهُ صباحًا؟هكذا تتنقّل هَلْوَسَةُ التكفير من ألسنة المتطرّفين إلى ألسنة القادة والرؤساء والسياسيّيْن.

كم من مسلم سيستجيب لدعوة القذافي للجهاد ضدّ سويسرا الكافرة الفاجرة؟

ها نحن نسقط في جاهلية سابعة، ونُشيّع جثمان الاتّحاد الإفريقي بعد أن قرأنا الفاتحة ألف مرّة على الاتّحاد التونسي الليبي، والوحدة العربية، والوحدة المصرية السورية، واتّحاد المغرب العربي. ها هو الاتّحاد الإسلامي شعار المرحلة. اخضرّي، يا راية التّخلّف اخضرّي. هكذا يسرق القذافي مشروع المتطرّفين الإسلاميّيْن الذين وصفهم في خطابه بالإرهابيّيْن.

المشكلة أن القذافي في غمرة حماسه نسي أنه سيصطدم بقضية "الإمام الصدر"، وهو يُروِّج لاتّحاده، ثمّ أي معنى لاتّحاد إسلامي في غياب إيران الدولة الإسلامية الوحيدة التي تمتلك سلاحًا نوويًا، يُحرج الغربَ كلّ يوم؟وهل سترضى السعودية أن تدخل في اتّحاد يدعو إليه القذافي؟وأي معنى، إذنْ، لاتّحاد، تبقى فيه الأراضي المقدّسة خارجه؟

ذكرت اليوم جريدة "الخبر" الصحيفة الأكثر انتشارًا قبل تصاعد مبيعات جريدة الشروق بسبب المعركة المصرية الجزائرية أنه وقع القضاء على إرهابيّيْن بمنطقة بني فضالة بباتنة. وقد سقط الإرهابيان إثر قصف الطيران للمنطقة بعد وصول معلومات إلى مصالح أمنية بوجود جماعة إرهابية بالمنطقة. وتعرف عدّة مناطق ببلدتي واد الماء ووادي الشعبة وحيدوسة عمليات تمشيط واسعة مدعومة بالمروحيات.

في الصفحة الأخيرة نفسها خبر عن انتحار شابّ في العشرينات بـ"عين تيموشنت"، وخبر آخر عن الإفراج عن الأمين العامّ السابق لتنسيقية أبناء الشهداء أحمد لخضر بن سعيد الذي أُوقِفَ بتهمة الفساد، وإصدار شيك بدون رصيد. ثلاثة أخبار تُشكِّل خبرًا لم يُنشر.

يرنّ الهاتف. صوت السّيّدة _ش. ح_ التي تعرّفتُ عليها في إحدى المكتبات تسألني إن كنتُ أقبل تقديم محاضرة عن صورة المرأة في الإسلام في باريس FORUM-104.

أعتذر وأنا أسمع الموضوع المستهلَك، وقرّرتُ من زمان بألا أُقدّم محاضرة، ولا مداخلة إلا في مجال تخصّصي. أُودّع السّيّدة التي تستعدّ للعودة إلى باريس. ألتقط كتاب جيل ديلوز وفليكس غاتاري" .Kafka Pour Une Litterature Mineure

تهتُ في عبارته: "يكتب [الأقلي] مثل كلب يحفر حفرته، أو قطّ يُجهِّز جحره...".

- فكيف أكتب أنا الآن؟

28 فيفري

إذا كنتُ مقتنعًا فعلاً بعبارة كونديرا أننا "نموت دون أن نعرف ما عشناه"، وإذا كنتُ فعلاً مؤمنًا بأنه "من المستحيل أن يعرف الإنسان نفسه تمام المعرفة، إذ تظلّ ذات الإنسان، وبشكل ما، سرًّا مُغلَقًا، بالنسبة إليه"، كما يقول هنري مللر، فلماذا أسجّل هذه اليوميّات؟

عدتُ أمس متأخّرًا من سيدي يحي، فقد شعرتُ بضيق يُطبق على أنفاسي من حبستي لمدّة يومَيْن في الغرفة. كان لا بدّ أن أستنشق بعض الأكسجين مع صديقتي اللبنانية. المكان الوحيد والقريب الذي يُذكّرني بتونس هو "سيدي يحي"، لذلك يكون، عادة، ملاذي متى اشتقتُ إلى تونس. هناك يقلّ عدد المُلتحين الذين يُزعجون مخيّلتي.أجلس في مقهى على الطريق، أحسب نفسي في البحيرة، أو في شارع بورقيبة، آكل، عادة، بيتزا نباتية. الحياة هنا في سيدي يحي شبيهة بما عندنا هناك. غير أن هذه المنطقة تبدو لطبقة معيّنة، لا يتخطّاها بقية الجزائريّيْن، فهي ليست للجميع، بحكم غلاء أسعارها.

مَنْ يصل هذا القسم من اليوميّات، يظنّني أكره الجزائر، في الوقت الذي أشعر فيه بالعكس تمامًا، لأنني لم أحبّ بلدًا، كما أحببتُ هذا البلد، ولكن ما كتبتُهُ لا يوحي بذرّة من ذلك العشق؟ هل عليّ أن أُثبت هذا الحبّ. يروحو يقودو جميعًا. العالم برمّته. أتذكّر قسوة والدي، بقيتُ

لسنوات، أظنّ أنه يكرهني كرهًا كبيرًا حتّى حسبتني ابنًا غير شرعيّ، ولكنّي عندما رأيتُهُ من ثقب الباب، يتحدّث عنّي لأمّي بحنان عجيب، صُدمتُ، ولمّا رأيتُهُ يبكي في غرفته عندما عدتُ من الجزائر سنة 1993، ونجوتُ من الموت ببعض الجروح من السكاكين التي هدّدني بها قطّاع الطُّرُق الذين خرجوا عليّ من تحت الجسر قرب محطّة العقيد عبّاس عند عودتي من وجدة، صرختُ في الجبل القريب، لماذا لا يُظهِر حبّه هذا؟ لماذا يُغلق على حنانه في علبة؟ اليوم أتفهّم معنى أن تحبّ حدَّ القسوة.

هكذا أنا مع الجزائر، أكاد أصرخ بعشقها من فوق قمّة بوزريعة أعلى قمّة بالعاصمة. ولكنني لا أقوى على السكوت عمّا يصيبها من أورام. لا أريد أن أكون شاهد زور على راهنها.

أشعر أنها على عكس ما يظنّه البعض بأنها عائدة إلى حرب أهلية جديدة. وأنها ستختنق من جديد بلحى خشنة. وبقمصان بيضاء قصيرة. رائحة الكافور المُقرِفة أشمّها، وأعواد لا أعرف لها شجرة، يلوكها الصغار والكبار، والجمعة الحزين يغرقها كلّ أسبوع في الموت بخطابات المساجد التي تحفر في العقول، وتجرف كلّ نور، لتزرع السواد والظلمة الحالكة.

لا شيء يُطمئن، فهي غارقة في الانتظار. انتظار تحرُّك رجال الجبل الذين يحاصرونها من كلّ جهة. رجال في الجبال، ورجالهم في قلب المُدُن، يُطلقون اللحى، ويبيعون الملابس الداخلية النسائية.

عدتُ للتّوّ من العمل بصداع حادّ. الشقيقة تُشعرني بالغثيان، ولم أستطع أن أتناول شيئًا اليوم. أقشّر الآن حبّة برتقال، لعلّها تُبعد عندي هذا الغثيان. العمل المضني والنقاش مع المديرة في أمور تافهة، يثير تأزُّمي. أُشعر أنني لا أتقدّم في شيء، هنا. طاقاتي تهدر بلا فائدة، وبصري يتراجع

دون إنتاج. وصلتْني رسالة اليوم من المدير التنفيذي لدار بلومزبيري ر يطلب منّي للمرّة الثانية أن أُسرع في الانتهاء من روايتي، لكي ينشروها. دار بلزمزبيري من أشهر دُور النشر العالمية، ومقرّها إنجلترا، استحدثتْ لها فرعًا عربيًا، والنشر فيها يُعدّ مَكسبًا كبيرًا. لكن الضِّيق الذي أعيشه هنا، يجعلني غير قادر على المضي في الرواية التي قطعتُ فيها شوطًا كبيرًا.

مررْنا بحيدرة، فوجدنا زحامًا شديدًا، بسبب عزاء اليوم الثالث لعليّ التونسي الذي يسكن هناك. كانت السّيّارات بلا عدد، والشرطة متأهّبة. اليوم قرأتُ في الجزائر نيوز ملفًا حول تورّط بن بلة، أوّل رئيس للجمهورية في الجزائر، في فضيحة التجارب النووية الفرنسية بالصحراء الجزائرية، وأنه أمضى اتّفاقًا سرّيًا مع ديغول دون أن تعلم الحكومة بذلك. سقط مناضل جديد، لكنْ، هذه المرّة بالوثيقة، لا بالرصاص. الوثيقة تكون أشدّ فتكًا أحيانًا من الرصاص. هي التي تُحوِّل اسم الشخص من قائمة المناضلين والشهداء إلى قائمة الخَوَنَة والمُرتشين.

الصحف مازالت تلوك قصّة الاغتيال بلا جديد، الرواية نفسها بعناوين مختلفة. القاتل خرج من العناية المركّزة، وسيتمّ نقله إلى المستشفى لفَحْص مداركه العقلية. المضحك أن وزير الداخلية أمر بإرساء فحوصات نفسية دورية لرجال الشرطة بعد أن تكرّرت محاولات الانتحار والاغتيالات وإطلاق النار. اليوم فقط قرأتُ خبرًا عن انتحار واحد من سِلْك الديوانة في باتنة، وإطلاق شرطي الرصاص على جاره، لأنه سبَّ والده. يبدو لا حوار هنا، إلا بالقَتْل. في بشار في غرب البلاد، تستمرّ الشرطة في ملاحقة مهرّبي الحشيش، وزارعيه.

اليوم اطمأنّ عليّ صديقي الروائي الحبيب السائح بالهاتف. حبيب هو الصديق المقرّب لي في الجزائر منذ سنوات، لكنه، للأسف، لا

في سعيدة بعيدًا قرب وهران. ابتعد عن قرف العاصمة ومعارك مثقّفيها، وسَكَنَ الصحراء، وسَكَنَتْهُ، ليكتبَ في صمت نصوصًا، لا تُشبه غيره. حبيب لا يعنيه القارئ الآني المستعجل، يكتب نصّه على نار هادئة للتاريخ، لقارئ مختلف، مازال عنده الوقت الكافي، ليستمتع بالعبارة، ويفكّ الرموز، ويحرق ذاكرته بحثًا عن النصّ الغائب المذوّب في نصوصه.

"هنا مقام الرذائل والشهوات جميعها، وهنا أيضًا فضائل عديدة، لها مهاراتها، ولها مشاغلها، ولتلك الفضائل الجمّة أنامل للكتابة، وأرداف من رصاص".

هكذا تحدّث زاردشت عن روما، فهل بعد كلامه من كلام؟

29 فيفري

"أيّ مسلم يشتري بضائع سويسرا هو كافر. بلّغوا المسلمين في كلّ مكان من العالم الإسلامي. أنتُم، أيّها الحاضرون. العالم الإسلامي جميعه. أيّ مسلم في أيّ مكان من العالم يتعامل مع سويسرا كافر وضدّ الاسلام، وضدّ محمّد. ضدّ الله. ضدّ القرآن.

سويسرا الكافرة الفاجرة التي تُدمّر بيوت الله، هذه التي يجب أن يُعلن عليها الجهاد بشتّى الوسائل.

قاطِعُوا سويسرا. قاطِعُوا بضائعَها. قاطِعُوا طائراتها. قاطِعُوا سفنها. قاطِعُوا سفاراتها. قاطِعُوا هذه الملّة الكافرة الفاجرة المعتدية على بيوت الله.

يجب أن تتحرّك جموع المسلمين إلى كلّ مطار في العالم الإسلامي. وتمنع هبوط أي طايرة سويسرية، وتتحرّك إلى الموانئ، وتمنع أي سفن سويسرية، وتفتّش المتاجر والأسواق، وتمنع أي بضاعة سويسرية."

نقلتُ هذا الخطاب للقذافي الذي قاله منذ أيّام بمناسبة المولد النبوي في بنغازي. أقلّب صور نجله هانيبعل في الصحيفة السويسرية التي فضحتْ معاملته لخَدَمه في جونيف. كان ذلك من أقلّ من سَنتين. شنّ القذافي حربًا على سويسرا، بسبب انتهاك حقوق ابنه المعتقل لبضعة

أين يمكن أن أهرب من هذا الجنون؟

1 مارس

منذ مدّة، لفتتْ انتباهي ظاهرتان بالجزائر، عدد المنتحرين وعدد المجانين. كلّ يوم الصحف تعلن عن منتحر أو اثنَيْن وأحد الجسور في قلب العاصمة يُعرَف بجسر الموت. لا غرابة، إذنْ، أن تجدَني الليلة أقرأ رواية سمير قسيمي "يوم رائع للموت".

نشرتْ جريدة الخبر يوم 11 فيفري خبرا تقول فيه "وضع 203 أشخاص، حدًا لحياتهم شنقًا السنة الماضية، بسبب المشاكل العائلية والاجتماعية، وتصدّرت القائمة كلّ من بجاية وسطيف والجزائر العاصمة. وبلغ عدد محاولات الانتحار التي باءت بالفشل 372 حالة.

ويشير تقرير أعدّتْه القيادة العامّة للدّرك الوطني، إلى أن ظاهرة الانتحار السنة الماضية، قد عرفتْ ارتفاعًا مخيفًا، مقارنة بسنة 2008، وانتحر 154، رجل مقابل 49 امرأة، في حين حاول الانتحار 117 رجل مقابل 255 امرأة فشلتْ في وضع حدّ لحياتها". وذكر التقرير أن أهمّ أسباب الانتحار هي المشاكل العائلية والأمراض العقلية، والانهيار العصبي، والبطالة. الغريب أن الظاهرة مسّتْ شرائح المجتمع كلّها نساء ورجالًا شبابًا وشيوخًا. وبدت ظاهرة انتحار أعوان الشرطة مُلفتة للانتباه. نشرت اليوم جريدة الجزائر نيوز تقريرًا بعنوان"الانتحارات المسلّحة تتحوّل إلى ظاهرة في سِلْك الشرطة". ويقول التقرير إنه يُسجّل ما بين 10 و12 حالة انتحار سنويًا، وترجع

الصحيفة استنادًا إلى تقارير أمنية وطبّيّة أن لضغط سنوات الإرهاب وضغط ساعات العمل دورًا كبيرًا في تنامي هذه الظاهرة إلى جانب ظاهرة الجنون والانهيارات العصبية. وهو ما تؤكّده جريدة النهار اليوم أيضًا، حيث نشرت خبرًا على صفحتها الأولى بعنوان "سائق الشاذلي، ابن وزير، قضاة وضبّاط أمن في مستشفى المجانين!"، وعنوانًا فرعيًا "96 جزائريًا يُصابون يوميًا بالانهيار العصبي، بسبب الظروف الاجتماعية الصعبة، وعدم الاستقرار"، ويُجري الصحفي حوارًا خاطفًا مع البروفسور شكالي محمّد، بمستشفى الأمراض العقلية بالبليدة، فيقول له إن الانهيار العصبي أصبح يمسّ من 5 إلى 10 بالمائة من المجتمع، أي أنه يمسّ حوالي 3 ملايين و500 جزائري، ومع ذلك، فإن خبر انخفاض أسعار تذاكر السفر إلى جنوب أفريقيا إلى 6 ملايين، بأمر من بوتفليقية، لتشجيع الخضر بالمونديال، هو الخبر الوحيد الذي لفت انتباههم اليوم، لأن الأخبار عن العمليات الإرهابية والاغتيالات والجنون والإضرابات في الكُلّيّات والمدارس واعتصامات الأهالي طلبا للأمن، أو احتجاجًا على وضعيّاتهم الاجتماعية، وأخبار الزلازل التي تضرب بعض مناطقها، هي من الخبز اليومي الذي لا يُقرأ، ويُرمى.

منذ ساعَتَيْن، انهمكتُ في قراءة كتاب الجزائر التحرير الناقص لغازي حيدوسي الوزير السابق للاقتصاد، والذي انتهى به المطاف في المنفى. شهادة يستعيد فيها حيدوسي قراءة تاريخ الجزائر الحديث من قبل الاستقلال إلى سقوط البلاد في نفق الإرهاب والفساد. كتاب يتحدّث بموضوعية وجرأة كبيرَيْن عن التاريخ، لكي تفكّ رموز ما يحدث الآن. لتفهم لماذا شنق نفسه ذلك الشّابّ في البليدة؟ ولماذا اغتيل عليّ التونسي في مكتبه من صديقه؟ ولماذا أشعل ذلك الشّابُّ النارَ في نفسه احتجاجًا على لباس أخته غير المحتشِم؟

يقول حيدوسي في نهاية كتابته: "إن الرقابة البوليسية المتغطرسة وبيانات الشعبوية الفارغة لم تنجح أبدًا في تحوّل عميق للسلوكات الاجتماعية، والأخطر من ذلك، لم تتمكّن من جعل الحياة اليومية قابلة للاحتمال".

2 مارس

"إلى أقبيةٍ، لا يُسبَر حزنها، نفاني القَدَر

أقبيةٍ لا يدخلها أبدًا شعاع ورديّ فَرِح

فيها أجلس وحيدًا مع الليل، هذا الضيف العابس

كأني رسّام، حكم عليه إلهٌ ساخر

أن يرسمَ واأسفاه على لوحة من ظلام

أو كطبّاخ مأتميّ الشهية

يعكف على سَلْق قلبه، ليقتاتَ به".

من وراء هذه النافذة الماطرة، أنشدتُ بصوت مسموع مطلع قصيدة لـ بودلير من أزهار الشّرّ، وأنا أتطلّع من النافذة إلى الحزن الممتدّ سما، رمادية؛ قشرة سردين.

سألتُها لماذا أنتِ محايدة، أيّها السماء؟

رميتُ جواربي المتّسخة في الحوض، أغرقتُها في ماء ساخن الذي سرعان ما تُعكِّر بشكل غير مُتوقَّع. كانت تبدو نظيفة قبل حين. بدتْ لي حياتي هذه الأيّام، وأنا أتأمّلها مثل جواربي في الماء الساخن تماما.

3 مارس

عدتُ اليوم باكرًا، فعلى الساعة الثالثة مساء، خرج الموظّفون جميعهم في الجزائر بحثًا عن الحافلات، لأن البلاد ستُغلق، والحركة سيصيبها شَلَل إلى آخر الليل. لا صوت يعلو فوق صوت الكرة هنا. الفريق الجزائري يجري مباراة وديّة مع الفريق الصربي تحضيرا لكأس العالم بجنوب إفريقيا. تساءلتُ وأنا أتدحرج نحو بن عكنون بحثًا عن الحافلة، ماذا لو كانت المقابلة رسمية؟

كلّ شيء هنا مصاب بشَلَل الأطفال. السنة البيضاء تُهدّد الجميع؛ الاقتصاد والسياسة والأرواح والضمائر. والمدارس والكُلّيّات. إضراب عامّ عن الحياة، وأفيون عامّ يُزرَع في أصفر البيض، يُؤكَل صباحًا، اسمه الكرة.

هل مازالت الرياضة "البديل عن سفك الدماء" كما يقول بول أوستر؟ وهل مازالت "أشرف الحروب" كما يقول درويش؟ لا أعتقد، فما حدث بين مصر والجزائر من أجل مقابلة كرة قَدَم، جعل الرياضة مثل دابّة بشعة. أضع وردًا على قبر الشاعر الإيطالي مانتاليه الذي صرخ من إبطَيْه: "أحلم بيوم، لا يُسجّل فيه أحدٌ هدفًا في العالم كلّه".

بين الشوطيْن، اهتمّت نشرة الأخبار باستقبال بوتفليقة لزين الدِّين زيدان.

صربيا هَزَمَت الآن الجزائر بثلاثة أهداف لصفر، بملعب 5 جويلية. وسبعين ألف محبّ يُهرولون في هضاب دالي ارهيم وبن يطاردون بعضهم. غدًا سيكون الشارع ملطّخًا بالشتائم.

أنهض لأغلقَ أقفال الباب الخمسة، كما يُغلق حارس مَرمى مُحنّك زاوية التسديد أمام مهاجم خطير. أنظر إلى النافذة المكسورة، أتذكّر عبارة ألبير كامو حارس المَرمى "تعلّمتُ أن الكرة لا تأتي مطلقًا نحو أحدنا من الجهة التي ينتظرها منها، ساعدني ذلك كثيرًا في الحياة خصوصًا في المُدُن الكبيرة، حيث لا يكون الناس مستقيمين عادة". أعود إلى الباب، أفتح كلّ أقفاله، لأنتظرَ تسديدات المولى على صوت عثمان بالي الذي يشدو بالأمازيغية الطارقية، ليبعث في داخلي صحراء، تنبت ورلانًا وحيّات وعقارب.

أزحف إلى ظلمتي التي تسيل من حولي. أتذكّر جارتي التي جاءت تشتم وتسبّ البارحة من صوت الدوش الذي أزعج أبناءَها. لم تتوقّع أن أخرج لها عاريًا. خبّأتْ وجهها بيديْها. ثمّ رفعتْهُ ببطء من بين يَدَيْها، وتدحرجتْ حشرجة من حلقها. خويا. الدوش؟ فتحتُ لها الباب مشيرًا لها بالدخول، لَفَفْتُ نصفي التّحتيّ بمنشفة قصيرة. دخلتْ وكأنها مسلوبة الروح. أشرتُ إليها أن تجلس. كانت تلتفّ في روب دويشمبر أحمر، ببعض الرسومات القبائلية. لبستُ قميصي. وأنا أسكبُ لها كأس الكوكا من قارورة مفتوحة من يومَيْن. مددتُ لها الكأس. شربتْ بعطش شديد. لم تكن الكوكا كاولا باردة، لكني سمعتُها تتدحرج في حنْجَرتها مُحدِثة صوتًا غريبًا. دخلتُ الدوش من جديد، لبستُ السليب، وفوقه روبًا قصيرًا عند الركبَتَيْن. كان منتصبًا بعض الشيء. همستُ لها وأنا أتابع ارتجافها. آسف. كيف أزعجتُكَ؟ حديث بارد متقطّع حدث بيننا عن صوت الدوش ومسالك

الماء. قبل أن أمسكَ كفّها وأنا أُودّعها. عندما أنزلتْ كفّها كانت قريبة من أزرار السليب المفتوحة. حرّكتُ قفلَ الباب أفتحه. تمسّكتْ بيدي. جعلتِ البابَ وراء ظهرها. اقتربتُ منها. تسلّلتْ أصابعها إلى ماوراء أزرار الأمريكان، بينما انشغلتْ أناملي بفَتْح الروب. ارتعشتْ. ضغطتُ على شبشبها بقَدَمَيّ الحافيَتَيْن. طار نهداها إلى فمي، وهي تهمس:

تونسي؟ همستْ.

- أمريكي

-أنتَ؟ !!

- لا. السليب.

- حبّيته.

-هو زاده.

- تذكّرتُ كلبي الشبق، وأنا أركبها، وندور حول بعضنا، نبحث عن شفاهنا. ودّعتْني بعد ساعة: ما عادش أدوّش اوك الوقت. تهبلنا بالزاف. شوية احترام لجيرانك، وصفقت الباب وراءها بقوّة.

الخميس 4 مارس

الرعب رجل، والطمأنينة امرأة.

"حتّى أكتب هذه اليوميّات، فإني ألبس لها، للمرّة الأولى، حذاء من جلد لمّيع، لم أستطع أن ألبسه لمدّة طويلة،حيث إنه ضيّق بشكل مرعب. ألبس هذا الحذاء عادة قبل أن أُلقي محاضرة، فالضغط المؤلم الذي يُسبّبه لقَدَمَيّ يحثّ قدراتي الخطابية لأقصى درجة. وهذا الألم الساحق الحادّ يجعلني أغنّي كالعندليب، أو كأولئك المغنّين من نابلي، الذين يلبسون هم أيضًا أحذية ضيّقة جدًا. فألم البطن والتعذيب الغامر يستفزّه الحذاء، يجبراني على أن أستخلص كلمات مستقطرة وحقائق سامية، نبعت من الاستنطاق الفائق للألم الذي تعانيه قدماي. وهكذا، لبستُ حذائي، وبدأتُ أُسجّل دون تردّد،معذّبًا نفسي...".

لم أستطع أن أستبعدَ هذه العبارات من ذهني وأنا أتأمّل صحن الفلفل الحارّ المحمّض الذي أضعه أمامي منذ مدّة، كلّما بدأتُ أكتب يوميّاتي. كنتُ أقضم الفلفل الحارّ بلا خبز، مستحضرًا فلفل بر العبيد التونسي. نزول قطعة الفلفل في أحشائي كانت كما نزول قنبلة يدوية، فتيلها مشتعل سرعان ما تنفجر في المصران. كما سلفادور دالي ربمّا كنتُ أُعذّب نفسي حتّى ترسم الحقيقة عارية. كدتُ أعتقد أن يومي مرّ عاديًا، ولا خير يرجى يصلح، ليسجّل ضمن هذه اليوميّات.

مثل سور حضارة بائدة، كنتُ أبدو هذا الصباح محطّمًا حتّى آخر الأساس. كتبتُ على ورقة على مكتبي "محطّم أنا السور العتيق، لكن حجري ثمين. حجر أسود سيحجّون إليه يومًا. ذلك هو اليقين الوحيد لديّ الآن. الموت قد يرعاني أكثر من الحياة". بتلك الجملة قاومتُ نهاري. حتّى داهمني الشّكّ.

عندما مدّ الشرطي يده هناك بعيدًا إجابة عن سؤالي. رأيتُهُ. كان يقف مثل ذئب جائع ملطّخا بجرائم المدينة كلّها. كأنني أعرفه، تمتمتُ، ثمّ مضيتُ في طريقي. نسيتُهُ. سقط من ذاكرتي فجأة حينما سحبتْ ذهني أمور أخرى، لم أعد أذكرها. عندما بدأتُ أصعد دَرَجًا ملتويًا من شارع العقيد بو قرّة نحو السماء. التفت. كان ورائي يخطو ببطء. أسرعتُ. أسرع. هرولتُ وأنا أصعد الدرج القاسي. أسرع هو خلفي. تسارعتْ دقّات قلبي. مَنْ قال "الخوف فم أبيض"؟ أحاول أن أسرع أكثر. أشعر بركضه خلفي. ألتفتُ، أراه يتحسّس شيئًا في جيبه. تذكّرتُ الآن أين رأيتُهُ. ينبض جرحٌ ما التأم. كان هناك في محطّة العقيد عبّاس حين طعنني بالموسى البوسعادة سنة 1993 على الحدود الجزائرية المغربية. تمامًا كان يشبهه. حتّى معطفه الرمادي نفسه. ركضتُ. أرمي خطواتي نحو الله البعيد. ما الذي جعلني أبحث عن SDEGA؟ ما الذي كان سيحدث لو بقيتُ يومًا دونه؟ سيقطعونه؟كنتُ سأُشعل الشمع حتّى يُعيدوه. ليست أوّل ولا آخر مرّة يقطعون عليه النور، وأبيت في الظلام.

حياتي مرّت في السواد. هل هربتُ من ظلمة البيت لأقعَ في الظلمة الأبدية؟ قلبي سبقني إلى فوق، كما لو أنه مات. ركض خلفي، ركضتُ. يكاد يُمسك بي في الظلمة. أنتظر الطعنة كلّ حين. لم يعد في إمكاني العودة، والدرج مازال طويلا. أركض. سأنجو. أردّد. سأنجو. أضع قَدَمي

على آخر درجة. اقترب الذئب منّي. بدأتُ أشمّ عَرَقَهُ. أسمع لُهاثه بوضوح أنفاسُهُ تكاد تهزُّ زغب عنقي. أحمي مكان الطعنة القديمة.

امرأة تفتح الباب. تقف في النور تنادي "ميلود ... ميلود أرواح".

"أمّي شربة ماء يعيّشك". قلتُ وأنا أرتجف.

أرواح وليدي. قالت. وصل ميلود. ابنها. برطم بلهجته غير المفهومة. ودخل. جاءني بـ"قرعة" الماء. كان الذئب في الركن البعيد يقف منتظرا لم يعد عندي شكّ بأنه يترصّدني. حركة الشرطي الذي مَدّ يده، يُريني الطريق، كشفتْ غربتي. شربتُ قليلاً، وشكرتُ ميلود وأمّه. رأيتُ مجموعة من الشباب ينزلون الدرج، فهرولتُ معهم. لا خوف من القطيع الخوف من الطريد.

كانت أنفاسه السوداء مازالت مبعثرة على الدرجات. ولعابُه يسيل حتّى يقين النجاة. دخلتُ البيت، وكتبتُ بسرعة "الرعب رجل، والطمأنينة امرأة"، ومضيتُ أحضّر صحن الفلفل الحارّ، لأكتبَ ذكرى طعنَتَيْن بين عقيدَيْن.

هل كان اسمه فعلاً ميلود؟

5 مارس

ماذا يمكن أن ننتظر من يوم الجمعة من أحداث. لا شيء تقريبًا يحدث يوم الجمعة. قمتُ متكاسلاً عند التاسعة تقريبًا. فتحتُ دفتري، تأمّلتُ ما كتبتُ من يوميّات.

كنتُ أقرأ أحداثًا لكائن آخر. يبدو حزينًا وعنيدًا.

هل فعلاً هذا أنا؟ تقدّمتُ من الكيس البلاستيكي المعلَّق في زاوية من المطبخ. سحبتُ فطيرة الخبز اللبناني. بدتْ لي ببقع خضراء. هل تراها فسدت؟ أم هو الخبز أيضًا اخضرّ هنا؟

شعرتُ بالجوع منذ أن أفقتُ. البارحة بتُّ بلا عشاء. كنتُ مرهقًا ومصابًا بالقرف ممّا حصل لي في الدرج المظلمة. وضعتُ حبَّتَيْن من القرع الأخضر، وحبّة طماطم، وبصلة، وبعض الفلفل الأخضر، وحبّة بطاطة قطعتُها كلّها، ورميتُها في مقلاة الزيت. وضعتُ فوقها بعض الفلفل الأسود والملح. تذكّرتُ أن الفلفل الأخضر حلو، فزدتُ ثلاثة قرون من الفلفل الحارّ المحمّض، وعصرتُ عليها بعض الهريسة من أنبوب كأنبوب معجون الأسنان، أتيتُ به من تونس. تركتُها فوق النار وقتًا حتّى استوتْ، وضعتُ فوق الخليط بيضَتَيْن.

أصبحتْ وليمة. وضعتُها أمامي في المقلاة، كما هي. أكره غسيل

الأطباق. لا أحد يراني الآن. سآكل في المقلاة. كلّ ما نقوم به وحدنا لا نجرؤ على فعله في العَلَن. أنا الآن عارٍ تقريبًا بملابس داخلية. أحيانًا أجرش أمكنة هنا وهناك. أتفقّد إبطي، مازال شعرها قصيرًا. أشمّها. عليّ أن أستحمّ بعد الأكل. أنزع السليب، أرميه بعيدًا. بدا لي ببقايا مَنِيّ يابس. ألتقط آخر نظيف، ألبسه بسرعة. بمَن احتلمتُ البارحة، لا أدري. أقف أمام المرآة، أتأمّل صدري الذي اكتسحَهُ الشيبُ. شَعْره أبيض فجأة هنا. أُمسك بخصلة منه. أقتلع بسهولة شَعْرة أو شَعْرَتَيْن. شَعْر مُلتوٍ كمثل هذا الحظّ تمامًا الذي أطارد إلهه تحت الأرض. أُمسك بقايا كوكا كولا، نسيتُ متى اشتريتُها. أشرب الماء الأسود. مزيّفون نحن فعلًا. لا نعلم مَنْ نحن أبدًا.

لا خبز آكل به هذا الخليط. شرعتُ آكله بالملعقة، أنا الخبزيست الذي لا يمكن أن يأكل شيئًا دون خبز. في طفولتي، كنتُ آكل خبز الطابون بخبز الإيطالي. كان وقتَها نادرًا. أبيض وطريًا مقارنة بكسرتنا السمراء اليابسة. ها أنا انتهيتُ من ذلك الخليط. لا شيء مستحيل. يمكنك أن تُغيِّر قناعاتكَ بسهولة. لم أعدْ خبزيست. شعرتُ بخلايا مخّي قد اتّقدتْ، وأنيّ على استعداد للفتك بأي شيء. لديّ شهية كبيرة لأيّ شيء.الجنس أو القراءة. كلّ منهما أروع من الآخر. سجّلتُ رَقْمها في المحمول. طلبتُها. جاءني صوتها عذبًا ناعمًا.كنتُ أمام الكومبيوتر أُقلّب مكتبتي. قالت "وراك لاباس؟"

- "توحشتك".

- "اشحال تكذب".

- أبدًا، والله توحشتك. قلتُ كلمتي وأنا أنزع يدي من على الكومبيوتر، وأحكّ.

- عيطتلك بامال دوفوا وما تهزش عليّ. ماعادش نحب انديرونجيك.

- ما شفتهوش كنتُ غارق في الخدمة.

- اش عندك من بروغرام هانهار؟ نجيك؟

عندها فقط وقفتْ عيني عند رواية "أكلة الموتى"لكرايتون. فتحتُ الرواية على كِبَر الشاشة. وأنا أستمع إلى صوتها من بعيد في الهاتف الذي رميتُهُ وأنا ألتقط الرواية التي حسبتُها ضاعت. أخذتُ الموبايل وأنا أُحدِّث نفسي:

- "هذا هو الكتاب الذي يُشبهني الآن" انتبهتُ. صوتها لم يعد موجودًا. أغلقتُ الهاتف، وتهتُ مع ابن فضلان في بلاد الروس والبلغار.

ها أنا أراهم الفايكانج.

ها هو الجمعة يبدأ مزدهرًا.

6 مارس

صباحًا

مَن السافل الذي يسرق حلمي كلّ ليلة.

رميتُ بالوسادة على التلفزيون الذي تركتُهُ يشتغل من البارحة.

الظروف كلّها كانت مناسبة: الأكلة الغريبة وكتاب أكلة الموتى الذي مضيتُ آكله حتّى آخر الليل. ومع ذلك، تهشّمتُ على الفراش كزجاجة تانجو فارغة، لوّحتُ بها على الحائط.

لماذا لم أعدْ أحلم؟

كأني بكائن يتمدّد على فراشي، ويتوسّد وسادتي، يلحس أحلامي التي ربّيتُ خيوطها طوال النّهار. بشع بلسان طويل لزج. يُمرِّره عليّ مثل أنثى الضبع، تلحس مولودها من السّلاء. يتركني نظيفًا. متيبّس جلدي برغوة لعابه. لم يكن ضبعًا. كان بذيل سميك مثل ذيل تمساح، أو ورل ضخم بلا أذنَيْن. بعين واحده شبقة. يلحس أحلامي. يلعقني. جلدي يتحمّر باللعاب. أختنق وأموت. أبعث من جديد كلّ صباح بلا ذاكرة. بلا حلم. تطاردني رائحة الضبع الذي كان ينام في فراشي. أُهرع للحمّام. يهطل الماء. والله والشيطان على حطام رجل لم يعد يحلم.

ينقطع الماء فجأة، ليظهرَ لي الضبعُ الورل من البخار، يتقاطر لعابًا. يقف أمامي مبتسمًا. انتهيتُ، يقول انتهيتُ. كلّ شيء فيه يهمس. انتهيتُ. أرتمي خارج الحوض، أفتح باب الحمّام. أُشعل النور. أركض إلى الخارج حافيًا بمائي ورغوة الصابون، أُبحلق في السقف. أنظر من النافذة. طفل صغير ينزل الدرج، يلتفت إليّ. نظرتُهُ غريبة. طفلٌ غريبٌ. نظرتُهُ. أركض من جديد نحو الحمّام، أقف أمام المرآة. مستحيلٌ. وجهُ الطفل. وجهُ الضبع الورل .. وجهي.؟

سُرق وجهي.

أرفع يدي من على الحوض، تلتصق بلزوجة مقرفة.

لا مساء هنا. يسقط الليل فجأة على الشمس كجدار. هل ما كتبتُ هو يوميّاتي؟ أم مشاعر الغوريلا؟ هل أنا غير ذلك المغدور الأسود؟ هو مُعلّق هناك فوق برج الساعة، وأنا مدفون هنا تحت الأرض في هذا المنفى.

7 مارس

محطّة الحافلات. محطّة بلا حافلات. لا أحد في الريح. الساعة الثامنة. الثامنة ينتهي العالم هنا. العالم هنا غير موجود. زنجية ظهرتْ في العتمة، وقفتْ في الريح. وقفنا معًا ننتظر. الريح متواطئة معنا. بدافع منها شرعنا في حياكة جريمة. قتل المسافة.

"زعمة نصيبو بيس؟" شرقت. اقتربتُ "يمكن". كان باطن كفّها أبيض مُغرِ. اقتربتُ. دفعتُ بأصابعي. لمستُهُ. باردًا. "باردة الدنيا؟"

- بالرّاف مش نموت.

- شوية صبر تو نلقاو كار.

اعتلتْ وجهها ابتسامة "منين إنت؟"

- - تونسي.

قبل أن تنطق، قلتُ "الله يبارك. خيار الناس"، وضحكتُ.

ضحكتْ. فقد سرقتُ منها إجابتها. لن تقدرَ على قول شيء الآن. متعتي أن أقتلَ الجُملَ الجاهزة أنّى وجدتُها.

- اشحال الساعة؟

- مازال الوقت.

غرقْنا من جديد في جريمتنا. عاودتُ لمسها. لم يعد كفّها باردًا كما كان. لمعتْ عيناها في الظلام، فأضاءت العالم. حاجبُها يتمسّك بالسماء. يعجبني الحاجب المرتدّ. تشدّ شَعْرها ذيل حصان. شَعْرها دهنيّ، يلمع في العتمة على ضوء فانوس بعيد. شفتاها بلون فضّيّ. أصابعها بخيوط ملوّنة، وخواتم كثيرة. كلّها فضّيّة. يعجبني خاتمها في السبابة. أمسكتُها بجرأة مباغتة. "تعرفين؟ أعشق الخاتم هنا" تركتُ يدها بعض الوقت في يدي، ثمّ سحبتُها.

- وعلاش؟

- سيحبّها اللهُ لو سبّحتُ، وسينسى معاصيّ كلّها.

- أنتم واعرين دوك التوانسة. واعرين قاع.

- في الهوندبال بركا.

ضحكتْ. طلع الفجر. أمسكتُ كفّها من جديد. دسستُهُ في جيب معطفي "هنا لن تشعري بالبرد، وربّما تجدين الباص". ضحكنا. ضربتِ الريحُ بقبضتها على الجدار. سالت غيرتُها. انطلقتْ أصابعُنا تهذي. ونحن نبتعد عن المحطّة، ونترك الريح وحدها تقف في العتمة.

عندما وصلْت كنتُ وحيدًا. لكن خيوطها الملوّنة وخواتمها الفضّيّة وأصابعها كلّها كانت في جيبي.

8 مارس

في"عين الله"(*)
أجلس الآن في المنتصف بين الفكرة والتحبير
أجلس في المنتصف.
بين الحدث الرتيب والتسجيل
أحاول تهريب آلهة سقطتْ
أُلبسها عمامة وقبقابًا
أركض بها في الأوحال
لم أجرِّب، قبل الليلة، تهريب آلهة.
وراء جدار من بقايا زلزال قديم
نختبئ.
أهرب من عينَيْها الخائفتيْن
آلهة خائفة
يسيل بولها
وترتجف.
في العتمة جنود وبَلَل

---

*) ضاحية من ضواحي الجزائر

حَرَس أزرق ومعاطف
في المفترق
شكّ في الأحوال كلّها
عيون باحثة وعَسَس
آلهتي تُعدِّل عمامتها.
يقترب الخوف
ينهمر
تستغيث
"الآلهة لا..."
أستلّ السّكّين، وأطعنها
"مُوتي مُوتي الآن بشرف"

9 مارس

يتمرّغ في داخلي كازانتساكي معربدًا "نأتي من هاوية مظلمة، وننتهي إلى مثيلتها. أمّا المسافة بين الهاويَتَيْن، فنُسمّيها حياة. لحظة أن نُولد تبدأ رحلة العودة. الانطلاق والعودة في آن. كلّ لحظة نموت، لهذا جاهر كثيرون أن هدف الحياة هو الموت."

أحاول أن أطرد سفالة يأسه. أُهرع إلى أيّام من نوفمبر 1973. كانت هناك في مليتها البنيّة. حزينة وشاحبة. أكلتْها الخيبة وهي تلوك مغصها. في ركن من البيت الطوبي. شربتُ ماء العشب السّامّة كلّه. ولم أنزل. أعياها القفز من فوق السدّة. ابن الكلب هذا لا ينزل؟ أتعلّق بالأحشاء. بزوايا الرحم. لا أنزل. سأعيش. تطاردني سموم الأعشاب، ولا أسقط.

تنهار المرأة. تكبس رأسها بفولار أمازيغي بمئات الألوان، ابتاعتْه من بائع متجوّل بعشر بيضات. تحمل ألحفة وأرغفة. تركض هاربة. سيّارة سودا، في الطريق. تنقده "إلى مجاز الباب سي محمّد".

بين الغابات، تركض أحلام امرأة بإسقاط لحمها. عندها من اللحم عددًا، فلماذا العاشر؟

وراء البيت، تركتْ رجلًا يلهو بتقييد مواعيد لقاح العنز.

أتحرّك بين أحشاء الملية. تفزع: الكلب يتحرّك؟ تضع كفّها على الحركة. أتوهم. قالت.

فوق السريرالأبيض ماتت فكرتها. كان الطبيب حرّوش يقول"حرام تهبّطيه. بُعثت فيه الحياة. خلاص". تتوسّل "إنهم تسعة". يُلوِّح حروش بلاءته"يمكن يكون العاشر أخيرهم".

بالمسلك تتحزّم امرأة بسفساريها. تصعد نحو بيت التسعة بلحمها العاشر كاملًا.

يأتيها خبر بعد عشر سنين "حرّوش طلع يهودي".

تنتفض المرأة وهي تحضن لحمها الباقي وقد كبُر "يكذبوا".

أحضن اليوم ملاءتها، وأبكي. كانت مؤامرة، يا أمّي. لم أكن حيًّا.

10 مارس

أوقفتْني، صباحًا، مجنونة مرحة. نظرتْ في عيني. نزعتْ عليّ جملا مهشّمة. قالت كلامًا وسخًا. ابتسمتْ. ركضتْ تجرش أمرها. جميل أن تستقبل يومكَ بملاك. المجانين ملائكة الشوارع. هم فقط الذين يضحكون في وجهكَ دون حساب."ليس للمجنون ما يخيفه في باريس". كم كان سعيدًا هنري ميللر وهو يشاهد المجانين في فرنسا أحرارًا يمرحون. هذه أهمّ غنيمة فرنسية في الجزائر. سعداء هم ملائكة الشوارع. ينامون في العراء، وينظرون إلى عوراتهم في الضوء. يجرشون دون حياء. تمنّيتُ وأنا أحصي عدد أعوان الدّرك، يا ... لو كان هناك مجنون لكل مواطن.

وقفتُ اليوم في مرآتي. رأيتُ مزرعة الشيب، بعثنوني. وأورام العين اليمنى. يزداد ضعفها. آكلة الورق. قالت لي امرأة يومًا:"عيناكَ نار، يا فتى".لا أدري مَنْ يسكن هاتين العينين. أشعر أحيانًا أنّه هناك. يرقد بين اللونَيْن. الضبع نفسه. الطفل الضاحك نفسه من الدّرج الساقط في النّافذة. الثعبان المسنّ نفسه في السقف.

قالت لي العرّافة الحبشية أمس "بيتُك فيه قتيلٌ".

13 مارس

أنقضّ عليها، طفولتي، الآن، من عين طفل يمرّ بجانبي قرب "منحدر السّيّدة المتوحّشة". رفيعًا كان مثل غصن زيتون، يقاوم حقيبة الظهر الثقيلة، وينحر طريقًا وعرة.أخرجَهُ الطفلُ المهمومُ من جحره. مثل ثعبان أسود ينام منذ ستّ وثلاثين لدغة. ثقلت جثّته. لم تنبتْ له شوكة، ولا عرف السّمّ، وما لسع إنسًا ولا جانًا. ظلّ في جحره، يحلم بزمن، لا سمّ فيه حتّى شاخ.

أراني في قرية ممرّقة. أركب طريقًا برّيّة، أريد أرضًا بعيدة. أرضًا عدوّة. يركبني الخوف. خنزير هارب من الفجر. يعترضني. يركض نحوي. أحتمي بزيتونة. أتسلّق رحمة عالية. أتعلّق بها ساعة. يملّ الخنزير، ويمضي. أنزل طفلاً بلا قلب يسير نحو الدرس بسكّين.

14 مارس

"قولوا للناس، قولوا للحاضرين، قولوا للغايبين، خذيت موقفي خلاص".

الهاشمي القروابي يُحبِّر بصوته قراري، وأنا أتخبّط داخل شراك لزجة في قرار مظلم. أستقيل من أغصان الزقّوم، وأهرب. مطر ببراز وطير. بكفّي قلباي. ألاحق ساحري في مكائده. بسكّين ومعطف، أنحر الليل وابتذال السحاب. سفارة اليونان محايدة، والدَّرَك المرتجف معتوهٌ يهذي. ينفجر دمي منّي، ويُغرقني. يقول العرّاف: تعيش لمايو، وقد تسقط. فاركب مجراك، يا دمي. يا دمك، ما أسوده! انظر.

"لم تعد ماء، يا دمي
وحْلا أصبحتَ."
قابيل اليوم.
اغرسْ سكّينك أكثر
هشِّمْ بالصخرة صدري
اشربْ من دم أخيك، واسكرْ
قليما لكَ
وعناق لكَ
والتيه لي"

ألقى اليوم قابيل من الغيب. ألقاه في أرض الغدر، نفاني إليها، ولم يسألْ، مَرميًّا ألقاني في غرب الأرض بلا قبلة. لا قبر ولا علم.

كان قابيل أرحم.

15 مارس

يسكن معي عدوّي. يشرب من مائي، ويطلّ من نافذتي. قتيل قديم. أرسم على الجدران ابتسامة رمادية. أمضي راكضًا إلى فراشي، أحتضن كوابيسي. لم يعد للنوم معنى دونها. كوابيسي التي تنهض معي صباحا، أمشّط شَعْرها. أضفر لها جدائلها. أُلبسها أقراطَها الملوّنة. أُكحِّل لها رموشها. أصبغ أظافيرها. أضع لها "لمجتها" في حقائبها. أُمسكها من يَدَيْها، وأمضي بها. كوابيسي الصغيرة باتت تبكي أحيانًا عندما تراني، ومثل الأطفال تُهرع إلى أحضاني. يا كوابيسي الرقيقة!

ينسكب ماء الحوض بلا سبب. ينفتح الباب بلا سبب. تركض نحوي أشيائي. تختبئ من الرعب. تحضنني كُتُبي، وتبكي. يا بيتي، لو ترحمني، وتجيبُ. هل كان شهيدا منْ قُتل؟ أم معتوهًا، اصطادتْه الغربةُ قبلي؟

تنكسر فناجيني، وتندلق قواريري بألف سبب وسبب. يجرحني سكّيني، فأنزف من وريده إلى وريدي. مصِّي، يا شَفَتاي، دمائي المالحة، واتفليها.

ينتحر القتيل، وتُحرَق أرواح بيتي. في أحلامي أنجو أحيانًا، ويُسقطني الصباح في كابوسي. مازال القتيل يجلس على الكرسي الأيمن.

تنبت من النافذة امرأة تأكل الأخضر واليابس من جثّتي، وتُنهي أعوامي تقول كان عام سفارة اليونان المحايد، وقد مرّ.

16 مارس

صباحًا

أنا الساخر، أيّها الساحر. نقطة على حيرتكَ، تُسقِطكَ في الخسائر. كائناتي الصغيرة اليوم نائمة. أرهقَها نقاش الليل. قالت إحداها. ناعسة كانت تراقبني، وأنا أربط خيوط الفجر وأبتسم: قلي. كيف أقتلكَ؟ لقد مللتُ!". رميتُ لها بكيس الحلوى، وقلتُ:"أنا رجل يموت على كفّي".

ليلاً

الحشية مازالت بدماء القتيل الأخير. والوسادة ببقايا ريقه. يرقص الفانوس في السقف الذبيح، ومصحفي في كفّي مرتجفٌ، يتلو نفسه. من قلب الحشية تنبع دماء، وتنتشر. أركض نحو خزانتي. أُخرِج ملابسي جميعها، لأوقف الحشية النازفة. تغرق الثياب. تُغرِقني. يتدفّق الدم من تحت البلاط. من شقوق الغرفة. من الزوايا، ومن الجدار الجريح. لا نساء تطلّ من نافذتي، ولا بالباب صرير. عالقة الروح بعيدًا في الرعب القديم.

جريدة النهار، الأربعاء 17 مارس 2010

مثل أمس أمام محكمة جزائرية بتهمة الضلوع فى عمليات إرهابية، الموريتاني أبو محمّد، الذي كشف التحقيق أنه فى العام 2007 غادر بلاده موريتانيا، ليلتحقَ بأحد التنظيمات"الجهادية" بالقرب من مدينة تنبوكتو، وسط الأراضي المالية، قبل أن يتوجّه إلى الجزائر. وقد تمكّن الأمن الجزائري من إلقاء القبض عليه، وهو يتنقّل متقمّصًا متقمصا مظهر وسلوك معتوه، وهو يحاول الربط بين مجموعات من التنظيمات الإرهابية فى الجزائر.

- وصرّح أبو محمّد الإرهابي "المجنون"، بعد إلقاء القبض عليه بالوقائع المنسوبة إليه، كما أكّد أنه شارك في عملية ردّ قوّات الجيش الشعبى الجزائري عن معاقل الجماعة بولاية تبسة وسط الجزائر ".

رميتُ الجريدة.

الطفل الذي أراه أحيانًا في المرآة لم يعد يُزعجني بنظرته الحزينة. اختفى فجأة. جلستُ الليلة أكتب له وحده:

"طفلي الوسيم. مثلكَ تمامًا، لم أكن أدري. تمامًا مثلكَ، كنتُ أجري، إن رأيتُ قبرًا أو جنازة. قبل أن ينبتَ فيَّ هذا القتيل. سليل الخوف كنتُ طفلًا فقيرًا بلا أخ، ولا كان عندي صديق. اليوم أعيش ويعيش في قلبي قطيع من الموتى والجرحى وأبناء السبيل من الجنّ والإنس وقطّاع الطرق

سأُحدّثكَ عنهم كلّ يوم، فلا تخفْ. سأُحدّثكَ عن بيتي المشطور نصفَيْن بفأس؛ غرفة لي، وغرفة للجثث. سأُحدّثكَ عن كُتُبي، وعن أقلامي التي تطير، وعن نافذتي السوداء، وشمسي الطرية في يدي. لا تخفْ. سأُحدّثكَ عن فكّي الذي يذوب، لمّا أصيح. عن دمي حين يسيل، وسكّيني في جيبي، وجيبي في جنبي فتيل. لم يكن قتيلًا ذاك القتيل. قد كان حيًّا لا يموت. في "عين الله" كان يرقص بمليون كفن. طيّبًا كان القتيل، مثلكَ ومثلي، لا يأكل منّي إلا القليل. ويزرع فيّ صباحًا من العمر أنفاسًا جديدة.

لا تخفْ، وأصغِ إليّ. لا أنا يوسف، ولا هم إخوتي، ولا كان الذئب بريئًا. كلّنا البئر، يا بُنيّ. أصغِ اليّ. حولي الآن صناديق وقتلى وحراب وسيوف ورصاص. هذه بعض حياتي أرسلها إليكَ بالبريد. وأنا أمشي طريدًا، ليس في العين غير إله. ليس يفصلني عنه إلاّ نافذة عمياء، تنام في حضني من الخوف السميك. بعاهات قديمة، تنام المرآة في حضني جريحة. أمس من عينها قُتل القتيل.

لا خوف عليك، يا بنيّ. فقد كبرتَ في عيني هنا. مَنْ قال تركتُكَ قد كَفَرَ. أنتَ في دمعي، وفي خوفي تعيش. ها قد شبتَ. كنتُ أحميكَ داخل عظمي. نخاعًا كنتَ، وفي دمي، كنتَ تسيل. كنتُ أُخفيكُ في أنيني عندما سقط عنّي فراشي، وعضّني من ظهري القتيل".

18مارس

ما سأرويه الآن قد حدث. وليس لي ما أُضيف على الحَدَث. لا بلاغة فوق ليلي، ولا مجاز. البارحة تركتُ خلفي شيخًا، يتلو يوسف. عدتُ مساء، فوجدتُ يوسف قد قُتل. قلتُ، والفم يبتسم، قتيلان في بيتي. أخيرًا عائلة من القتلى هنا. صوت عبد الباسط متعب يروي من الجهاز، للمرّة الألف ربمّا، غدر الإخوة في الطريق. قفزت إلى عيني فجأة. كؤوس الشاي حُطّمت، والصحون التي تركتُها في الحوض تنتظر الغسيل. كُتُبي مبعثرة، وجواربي في كلّ ركن تستغيث. هل أزعجَ القرآنُ روحَ القتيل؟

هاتفكَ جثّة لا تجيب، قالت لي أمّ الطفل من بعيد.

انطفأ الجهاز من جديد. طُرق الباب عنيفًا. أفتح. لا أحد. دخل القتيل يرتجف.

19 مارس

من الغريب أن هناك كتّابًا أثّروا فيّ دون أن أقرأ لهم شيئًا مهمًا. كما هو حالي مع شارل بيغي. جعلتْني عباراته التي قرأتُها يومًا أتوقّف مندهشًا، فهذا الرجل يقول كلامًا كنتُ أقوله في صياغات أخرى. حتّى إنني أعود إلى يومياتي أحيانًا، لأمحوَ تلك العبارات، مادام هناك مَنْ سبقني إليها. كنتُ أهمّ بكتابة رسالة إلى صديقي حسن مرزوقي، أُخبره فيها أن وضعي هنا لم يعد يُطاق، وأني داخل بقوّة إلى جنون مؤكّد. عندما كتبتُ. ربّما سأُجنّ، لكنني لن أنهزم. كنتُ أستحضر عبارة همنجواي التي أوردتُها منذ أيّام في روايتي الغوريلا. "قد ينكسر المرء، لكنه لن يتحطّم" عندما تذكّرتُ أن هناك كاتبًا مجهولًا قرأتُ له شيئًا من هذا. اليوم أتذكّر. كان شارل بيغي عندما كتب لزوجته من الحرب "ربّما سأموت، لكنني لن أهترئ".

اليوم أتذكّره من جديد عندما ارتجفتُ، وأنا أُنهي مقطعًا جديدًا من الرواية. فعلًا، يا تشارلي، الكتابة تجعلنا نرتجف. أعود لاعترافاته، وأقرأ عبارته التي دوّنتُها منذ سنوات في دفتري: "لم أشرع في كتابة عمل إلا وأنا أرتجف، فكلّما تقدّمتُ في الكتابة ارتعشتُ، وأعيش في رعشة الكتابة، فطول عملية التأليف، كلّما تقدّمتِ الكتابة، ازداد خوفي ورعشتي".

اليوم أشعر أنني أدنو من نهاية الرواية. أشعر بخوف. كأنه أكبر من خوف إنهاء كتاب. ثمّة شيء سوداويّ ينبت في الأفق. شيء مثل الطائر الأسود الذي يفتح جناحَيْه في السماء، ويتّجه نحوي.

لم يتحرّك القتيل في بيتي اليوم، لكني أشمّ رائحته. هناك رائحة عَرَق مع أني أخذتُ حمّامًا هذا الصباح. لكن رائحة عَرَق ما في ذلك المكان بالضبط. عند الكرسيّ المستعمل. كلّما اقتربتُ منه اشتممتُها. لم أجلس على ذلك الكرسيّ من مدّة. هذا يعني أن هناك مَنْ يجلس عليه الآن. ولم يستحمّ. البارحة حملتُ سطل ماء، وقذفتُهُ عليه آخر الليل. كان القتيل يضرب بأصابعه على الخشب الجانبي للكرسي. كنتُ أسمعه جيّدًا.

أعدتُ قراءة ما كتبتُهُ ليلة الخميس. لا يبدو أنني أنا نفسه ذلك الذي يكتب. أسلوبان في كتابة هذه اليوميّات الآن. هناك مَنْ دخل على الخطّ منذ أن عدتُ من تونس، أجرّ خبر القتيل. يعلم القتيل جيّدًا أنني أكره هذا الأسلوب الشِّعْري الثقيل، فيجعلني أكتب به. هذا يعني أنه يستفزّني. بدأ يلعب لعبًا ثقيلًا. اليوم يُطلق عليّ عَرَقه، ويجعلني أفرك عيني منذ المساء.

20 مارس

أشياء غريبة تحدث لي منذ مدّة.أراني في الظلام أتسلّق جبالًا وعرة خلف رجال غلاظ. نهجم على قرى. نطارد بسيوفنا الحادّة أناسًا عرايا. نكتم أفواهًا، ونبقر بطونًا. نضاجع نساء نائحات. نترك أصواتًا ودماء كثيرة. نلمُّ مؤنًا ودجاجًا وخرفانًا، ونعود إلى مغارة في الجبل. نشوي اللحوم، ونأكل. يضحك مَنْ معي وهم يجترّون صور النساء العاريات. في ركن من المغارة أراني أحضن عظام أكتافي.

- أنهض الصباح، فأجدني نائمًا في فراشي في شقّة الأبيار. عضلاتي مشدودة، كأني قضيتُ الليل أمشي. أتثبّتُ من هندامي، ومن جلدي. لا أثر يدلّ أني صعدتُ ذلك الجبل، ولا ذبحتُ، ولا قتلتُ. ذكَري النائم فقط يبدو مُنهكًا من مضاجعة امرأة بالقوّة. على الفراش مَنِيّ مسكوب.

ما يُفزعني أنّه بعد كلّ ليلة أرى فيها نفسي في الجبل، أقرأ صباحًا عن سقوط قتْلى في مكان ما يُشبه الذي رأيتُهُ في ليلتي. أحيانًا لا أتذكّر الحلم صباحًا، لكني أجده خبرًا في صحيفة. أكاد أُجَنّ.

أوّل الكوابيس التي رأيتُها. كان في الليلة الأولى بشقّة الأبيار. رأيتني في أرض خالية. قرب جسر يُشبه محطّة الحافلات بـ "عين الله" تمامًا. باغتتْ ظهري فوهةُ رشّاش، وصوت يأمرني أن أرفع يدي إلى رأسي.

دفعني الصّوت لوضع الانبطاح. بركَ عليّ. أحسستُ بركبَتَيْه الثقيلَتيْن تُهشِّمان ظهري وهو يُقيِّد يدي إلى الخلف قبل أن يرفعَني من كتفي. وجدتُ نفسي أمام رجل مُقنَّع غارق في السواد، يحمل رشّاشًا غريب الشكل. دفعَني أمامه إلى النفق تحت الجسر.هناك ظهر مدخل صغير لمزرعة كلاب. كلاب متوحّشة في كلّ مكان، لا تتوقّف عن نباح عدواني. بدت مستعدّة لتمزيق الدنيا، إن انعتقتْ من سلاسلها. عادت ماسورة الرشّاش، تُعرَس في ظهري، تأمرني بالتّقدّم. مددتُ الخطى نحو المجهول، على ضوء مصباح كهربائي خافت، يُوجّهه صاحب الرشّاش من خلفي، يتحسّس به مسلكًا دقيقًا، يشقّ حقل القمح إلى شطرَيْن. كنتُ أُفكّر ما الذي جاء بي إلى هذا الخلاء في هذا الليل؟

لم أكن أدري أين وقعتُ. أمرني رجل الرشّاش أن أتوقّف أمام كوخ من القشّ بعد دقائق ثقيلة من المشي. رَطَنَ بكلام غريب، لم أتبيّنه. خرج من الكوخ رجل آخر ملثّم، ثبّت عصابة سوداء على عيني، وقادني إلى الداخل. أحسستُ بقَدَمَيّ تنزلان سلّمًا ما، وتغزو أنفي رائحة تربة ندية. بدا المقنّع الجديد الذي يدفعني أكثر عنفًا، فقد كان لا يتوقّف عن دقّ مقدمة سلاحه في ظهري. مغلوب على أمري، لا أدري أين أنا من العالم. لم أعد أُفكّر في شيء. أكل الخوف عوالمي كلّها. تلاشت الصورة فجأة من أمامي. ونهضتُ من نومي المُتعب.

اليوم فقط تأكّدتُ أنّني لم أكن أحلم. كنّا في الليلة السابقة نركض هاربين من رصاص يُدوِّي فوق رؤوسنا. كنّا ثمانية تقريبًا. القرية التي هاجمناها كانت غارقة في السكون. تسلّلنا بسكاكيننا وسيوفنا في الظلام مثل الثعالب. أشار إلينا القائد ببيت في مَرمى العين. ركضنا نحوه، وقبل أن نصل بابه، انهال علينا الرصاص. كمينًا كان. ركضنا في كلّ اتّجاه. تفرّقْنا.

قضيتُ الليل أعدو في الجبال. أبحث عن رفاق، لا أعرفهم. ابتعدتُ. لم أعد أسمع الرصاص. لم أعد أسمع شيئًا. عضّني الجوع آخر اللّيل. أمسكتُ أرنبًا، شلّه الثلج. شويتُهُ عند المنحدر. كنتُ أمزّق لحمه بين أسناني كَمَنْ يُمزّق نفسه. تتمزّق أعصابي وعضلاتي بين فكيَّ. أصرخ وأنا آكل لحمي مشويًّا. أرنبًا مُؤلمًا كان. أرنب ما اصطدتُهُ أم يدي؟

أفقتُ اليوم متأخّرًا. هممتُ بغسل وجهي وأطرافي. عندما قرّبتُ كفَّيَّ من وجهي، كانت رائحة الشواء تفوح منهما. شواءٌ غريب. لم أخرج البارحة؟ كان يوم جمعة. من أين أتتْني رائحة الشّواء، إذنْ؟

أراني، أحيانًا، ألبس بدلة عسكرية زرقاء، وأحمل رشّاشًا. أحرس قبرًا ضخمًا محفورة، عليه آياتٌ مذهّبة. على لوحه الرخام أسماء وتواريخ، لا أذكرها.

21 مارس

كتبتُ استقالتي.

22 مارس

10:30 Depart Tunis (TUN)
Arrive Beirut (BEY) 02:20 +1 day Tue 13-Apr
Duration: 14hr 50mn

Alitalia 863 / 826

Connect in Rome (FCO)

16:20 Depart Beirut (BEY)
Arrive Tunis (TUN) 22:00 Sun 18-Apr
Duration: 6hr 40mn

Alitalia 825 / 866

Connect in Rome (FCO)

- لكنْ، عليّ أن أُغيِّر التذكرة. عليّ أن أطير إلى بيروت من الجزائر. لقد وعدتُ الصديق عبد الرزاق بوكبة أن أعود إلى الجزائر، ونسافر معًا. مازالت الشّقّة تحت تصرّفي شهرًا كاملًا. أريد أيضًا أن أُودّع القتيل. لقد تركتُ بعض أدباشي هناك، لكي أعود. أشعر برعب خارج هذه الخزانة. أريد أن أعود إليها لأيّام فقط دون أن أكون مرتبطًا بالعمل هنا. أريد أن أسهر ليلة واحدة هنا دون التفكير في شيء، أو ربمّا التفكير في كلّ شيء. أنا الآن مُقدِم على حياة أخرى تمامًا.

23 مارس

وقفتْ في الباب مبتسمة. "لستَ على ما يرام الليلة"، قالت وحكّتْ عَانَتَهَا المُطلَّة من تحت قميص نومها. سرَّحتْ بأصابعها شَعْرها القصير "تبدو مهمومًا". "ألم أعجبْكَ؟ أنتَ أيضًا لم تعدْ تعجبني. انظر نفسكَ، خيال ...خيال.".

مَنْ هذه التي تقف في باب غرفتي عارية، وتُحدّثني عن مجامعة، لم تُعجبها؟متى دخلتْ؟ وكيف؟ لا هي نسيمة، ولا وهي نعيمة، ولا أحد ممّنْ عرفتُ؟ أنحني أتفقّد ذكَري. لا أجده. أُقلّب الغطاء. لا أجده. أرمي بالحشية. لا أجده. أقذف بالوسادة. يطير من تحتها مصحفي الصغير. لا أجده. أبحث عنه في كلّ مكان. لا أجده. تضحك هي، تضحك في مكانها وهي تتابع بحثي الهستيري. يظهر من خلفها رجل بلحية مُهمَلَة، أكلتْ وجهه. وقف في قميص أبيض يبتسم. غمها في برنس أسود. اختفت تمامًا. ضربها على كفلها. ثمّ أخرجها، كما يخرج ساحرٌ حمامة من صندوقه، مسكها من كفّها وهما يختفيان. ضحكة داعرة تتدحرج في العتمة نحوي. ركضتُ خلفهما. سمعتُ صوت الحديد، بابٌ يُغلَق عليّ في قبوي. سال من الدرّج مَنِيّ ثقيل. مَنيّي الذي سرقتْهُ امرأة الظلام. تسلّل من تحت الباب. غمرني موجُهُ. أغرقَني وأنا أشدّ أذني حتّى لا أسمع ضحكتها الداعرة.

في الصباح، نَبَتَ لي ذَكَرٌ جديد، ووجدتُ الحذاء الذي رميتُهُ أوّل الشارع منذ أسبوع بجانب فراشي.

24 مارس

الفأسُ التي ضُربتْ بها عنقي عند الباب مازالت شاهدة. ودمي المسكوب في آنية الشاي تيبّس واسودّ. قال قاتلي. دمه؟ منذ ألف عام أشربه حلمًا. قال صاحبه سأُحنّي بدمِ الطفل اللحية والحاجب والشَّعْر النابت في الأذن. ضحكا في غرفة رأسي المقطوع. مَخَّخَني المُقنّع، ضرب بي على ساق المقعد، ومَصّ العظمَ. في الركن، كان قتيل البيت يرتجف. ودمه المنسكب حتّى نصفه. من النافذة، طلّت عيون، وألسنة بطول شجر العار، تسأل عن حصّتها. قال الملتحي هذا سليل الهوتانتوس، انظرْ أنفه، أفلطس. لا تخدعك بشرته. زنجيًا كان، وارتدّ. الأنف لا يكذب. انظرْ جروحه عند الظهر والصدغ. انظرْ جراح العين التي قُدَّتْ. طفلًا كان ملعونًا. طفلا أزرق. أكل قبل قرن ظهورَ سلاحف الأرض، وفرّ ... في عام المطر المحسور. طاردناه بحراب الدنيا. حتّى سقط في المجرى، وتاه. نُمسكه اليوم، وقد شاخ.

هيّا، نلفُّه في الجلد. وندفنُهُ. جالسًا نحو الشرق، وجدوني في جِلْد النمر بعد عام وألف. كانت فأسي مازالت في الرأس.

25 مارس

قمتُ أبحث في خزانتي عن جوارب نظيفة. لم أعثرْ في الغرفة إلاّ على فردَتيَ حذاء رياضيّ قذر مقاس 44. أمسكتُ إحداها. تشمَّمتُها أففففففففف. عطنة. ألقيتُها في سلّة القمامة.

رسالة من نسيمة وصلتْ للتّوّ تقول إنها بخير، وإن التحاليل نظيفة، وتسأل متى تأتي؟ أُغلقُ الهاتف. دخلتُ فراشي.

26 مارس

أشعر أنه يُمسِكُ بالقفل من الداخل، ويُعيدُه إلى مكانه، كلّما أدرتُ المفتاح، أحاول فَتْح الباب بلا جدوى. هي لعبته المُسلِّية التي حفظتُها منذ أسبوع. مَلَلْتُ لَهْوه السخيف، فلعنتُهُ، ولعنتُ اليوم الذي سكنتُ فيه البيت. انفتح الباب. أنرتُ الرواق المؤدِّي إلى الصالون. شعرتُ به يسبقُني راكضًا، ليحتلّ الكرسيّ الجيّد. لم يكن بالصالون غير كرسيَّيْن اثنَيْن واحد سقط مقعده، وبات الجلوس عليه مؤلمًا، والثاني مازال في حال أفضل. كلّما هممتُ بالجلوس على المقعد الجيّد إلا وحدث معي أمر ما. إمّا أن تصطدم ذراعي بجانب الكرسيّ، فأظلّ أتألّم لوقت، وإمّا أن تنقلبَ على ملابسي القهوةُ أو الشاي، فأُضطرّ لمغادرة الكرسيّ لتغيير ملابسي. اقتنعتُ في النهاية أن ذلك الكرسيّ له، فتجنّبتُهُ. ومع ذلك، مازال يركض قبلي إليه، كلّما فتحتُ الباب. استعنتُ أنا بوسادة هزيلة، وضعتُها على المقعد، لأحميَ مؤخّرتي من قساوة اللوح ووخز المسامير المُتسلِّلة. صحن الزيتون الأسود الذي تركتُه البارحة قبل أن أنام فوق المائدة، وجدتُهُ مليئًا بالنوى. قطعة الخبز الوحيدة اختفتْ. ميّت عالة. يسكن ويأكل من زادي، ويشرب مائي بلا استئذان، ودون خجل. قلبتُ صحن نوى الزيتون بحثًا عن زيتونة واحدة، ربّما تركَها لي. ليس هناك ولو نصف زيتونة جشع. تمتمتُ قبل أن ألتفتَ إلى الكرسيّ الذي رأيتُ مقعده منخفضًا. هل تعلم أنّكَ ميّت حقير؟ ميّت بلا كرامة ... مثل الورل تمامًا، تستولي على

متاع غيركَ. حتّى حفرتكَ، لا تحفرْها بنفسكَ، ومَسكنكَ، لا تَبْنِه. اقتحاميٌّ ومتطفّلٌ أنتَ. ولكنّكَ ستظلّ في الظلام. عشتُ في العتمة، ومتُّ في العتمة، وفي العتمة، بُعِثْتُ مثل وطواط نَتِن. رميتُ بصحن نوى الزيتون عليه، وقمتُ إلى فراشي. آخر الليل كنتُ أمزِّق بأصابعي قميصي الذي نمتُ به. كان الاختناق قاتلًا. نهضتُ، رائحة الغاز تملأ الغرفة. هُرعتُ نحو النافذة، فتحتُها، ثمّ أغلقتُ مفتاح الغاز الذي كان مفتوحًا على آخره. تدلّيتُ لوقت من النافذة مثل جوارب في الريح. ثمّ ركضتُ نحو الباب، فتحتُهُ، وألقيتُ نفسي في الرواق. لا أدري كم بقيتُ مطروحًا على الأرض في ذلك الليل. في لحظة، أحسستُ ببرد يُهشِّم كتفي، فتحتُ عينَيّ، فوجدتني مَرميًا مثل خرقة بالية في رواق مظلم، وقطٌ أسودٌ يموء حولي. تمالكتُ نفسي، ودخلتُ أرتجف. وضعتُ على كتفي معطفي الرمادي، وجلستُ إلى مقعدي. فكّرتُ. الحياة لم تعد تُطاق مع هذا القتيل النَّزِق. لقد أراد قَتْلي. كلّما نظرتُ نحو مقعده، أصابتْني نوبة من الغثيان. شربتُ كأس حليب من قارورة قديمة. وارتميتُ على الحشية القاسية. ظللتُ الليل كلّه، أسمع ضحكته المائعة تخرق أذني. لزجة كانت مثل المخاط.

29 مارس

غيّرتُ التذكرة، سأنطلق من الجزائر إلى بيروت، وسأعود إلى تونس من هناك. كنتُ فقط أبحث عن انتصار معنويّ، أترك به هذه التجربة.

شيءٌ ما ينتظرني هناك، أزعجني طوال هذه الأشهر هنا. شيء ما يتأجّج في داخلي. صديقتي الشاعرة ليلى الزيتوني صاحبة النبوءات التي لا تتوقّف. تُرعبني بتوقّعاتها، وتُضحكني. قالت أرى هناك أن الدم للركب. ضحكتُ يومًا أمام تمثال الأمير عبد القادر. لكني في الليل رأيتُ سيف الأمير يقطر دمًا. يتقاطر الدم حتّى يصبح سيلًا. لكني رأيتُ تحته تمثال ابن خلدون يغرقُ في الدم. ماذا يفعل ابن خلدون تحت الأمير عبد القادر هنا؟ خجلتُ من أن أُعيدَ رواية الكابوس.

توقّعتْ لي ليلى أيضًا أن أعودَ إلى تونس، وأن أغادرها أيضًا في بعثة رسمية. توقّعتْ ليلى أن أُجري عملية في عينِي اليسرى. توقّعتْ ليلى الكثير حتّى أخافتْني من العودة. ليلى لا تتوقّع فقط. بل تجزم. تقول إنها ترى. أرسلتْ إليّ اليوم نصًا جديدًا، سمّتْه "رجل الخطوط": النص مُهدى لي، يا ليلى! قالت هو أنتَ. استلهمتْه ليلى كما قالت من تجربتي، لمّا قرأتْ شيئًا من هذه اليوميّات التي أنشرها على صفحتي:

"يسألونني هل سمعتُ عن رجل من خطوط

يسكن في خزانة
جسده من حروف، وعيناه كالمحبرة؟
يسألونني هل سمعتُ عن رجل من خطوط
- ينام في المقبرة؟
من خلف الطوابق النازلة يخرج في الصبح عصفور
سالت من ريشه المحبرة
رجل من خطوط، يرسم للبحر أمواجًا
وللطفل دمية من قماش
وفانوسًا من كاز
وحكاية
عن بلاد بعيدة، ملوكها الكلمات، وسكّانها أفكار، وأشجارها أغنيّة
- يرسم رجل الخطوط كلّ صباح على الجدران المظلمة
سلّة للتّفّاح، وزهرة البرتقال، وحدود للوديان المُحمّلة
وامرأة من نشيد تغنّي عند شجرة الخروب
عن نحلة في جدائلها
يرسم بالزيت المعصور نهدها
يتقاطرأنهارًا من حليب
يسألونني عن ذاك الغريب
يسألونني عن رجل من خطوط
يُقتَل ولا يموتُ
- يسكن في خزانة
جسده من حروف، وعيناه كالمحبرة
رأيتُهُ في القمر، ينام كالشرنقة".

ليلى امرأة غامضة كهذه الجزائر. لا تعرف إن كانت مدينة متوحّشة أم حضنًا ما بعده دفء! تخشاها، ولكنكَ لا تطمئنّ لغيرها. ليلى مشنقة ناعمة. هدير من الشَّعْر الملفوف في الرؤى والنبوءات النية.

1 افريل(*)

في المكان نفسه الذي كنتُ أنتظر فيه نسيمة، وقفتُ قبل ساعات، أنتظر تاكسيًا، ليأخذَني إلى المطار. جاء بعد ساعة. وقف فجأة قريبًا منّي، وكاد يطير بساقي. ركبتُ متذمّرًا، وظللتُ طوال الطريق أُفكّر بها.

في كافيتيريا بائسة، بدا لي إبراهيم. جلستُ منذ سنة أُحرّكُ سُكّر القهوة الثالثة دون رغبة في شربها عندما أطلّتْ عليّ من نافذة سيّارتها الشوفرولي مُلوّحة بكفّها. ركضتُ نحوها " أخيرًا، وصلتِ؟" تمتمتُ وأنا أقفز بجانبها. كالعادة في سروالها الجينز الواسع.

نسيمة ليست لها مؤخّرة، وهذا يزعجني. ولكنْ، ما كان يزعجني يومها هو أن علينا أن نشتري بسرعة حشية أنام عليها، فقد مرّت 3 أيّام وأنا أنام على معطفي فقط. قلتُ أختطف "الجراية"، وأعود إلى المكتب. تذكّرتُ أن معظم الموظّفات في المكتب بلا عجيزات، وهذا أمر حيّرني في هذا البلد. مَنْ سرق تلك العجيزات كلّها؟

كان عليّ أن أُراهن على نسيمة. منذ أن وصلتُ الجزائر، تلقّفتْني من المطار. لا أحد من أصدقائي الرجال اتّصل بي. الحمد لله. الرجال لا يطلبونكَ إلا لشرب البيرة، ولا أحد خمّن أنني أُفكّر ببيت، أعود إليه بعد

---

*) أفريل: نيسان

البيرة. نسيمة لا تشرب البيرة، لكنها تشرب الفودكا، وهذا جيّد. هكذا كنتُ أخمّن طوال رحلتنا باتّجاه السوق، ونسيمة تبدو سارحة في ملكوت الطريق حتّى وصلنا.

في السوق، نصحتْني نسيمة أن أشتري حشية، تسع شخصَيْن، قلت لها إنني لا أحتاج إلا واحدة لشخص واحد. قالت نسيمة معاتبة:

"ما كانش واحد يعيش في دزاير وحدو وما يجنش".

"ربّما أنا. قلتُ متحدّيًا"

"ألا تفكّر في استضافتي؟"

لم أكن وقتها أُفكّر بنسيمة. كانت رؤيتها لا تفعل شيئًا مختلفًا عن رؤية سمير السليمي في قناة نسمة محلّلًا الوضع الكروي المصري الجزائري. لكن الأمر تغيّر مع نزول البرد. من يومها، اعتقدتُ أن النساء كان يجب أن يعبدنَ الشتا، الذي يجعل منهنّ جميعًا جميلات مُغريات.

اشترينا الحشية بمكان ونصف (نسيمة بلا مؤخّرة)، وعدنا. عندما وصلنا الغرفة الصغيرة التي استأجرتُها منذ يومَيْن. قفزتْ نسيمة نحو النافذة. قلتُ لها: هذا بلّور عازل، يمكنكِ أن تشاهدي كلّ شيء، ولا يراكِ أحد.

كان الناس يتحرّكون في الخارج، ونسيمة تتابعهم مبتسمة. عندما التصقتُ بها من الخلف، واحتضنتُها، تنهّدتْ، وسرعان ما اهتاجتْ. انزلت لها بنطالها، همستُ لها: تعالي إلى الحشية والنصف.

امتنعتْ. طلبتُ أن أضاجعَها أمام النافذة. نسيمة كانت تتهيّج كلّما

مرّ أحد الملتحين بقمصانهم البيضاء. أتعبَني هذا الماراطون كلّ يوم جمعة أمام ذلك البلّور العازل، وقوافل الملتحين وهياج نسيمة الذي ينتهي كلّ مرّة بنوبة من البكاء.

ها أنا في مطار هواري بو مدين أُغادر الجزائر بعد أن قدّمتُ استقالتي من العمل، لأعود إلى البلاد.

أسترجع صوت صديقي الروائي الحبيب السائح بضحكته المُدوّية عبر الهاتف:

"كمال!!! كي رآك داير؟ لا تحزن. ماتزعفش. تروح تقود الحياة."
أجرّ حقيبتي نحو الحزام. تمرّ الحقيبة. أمرّ. لا صفّارة.

داخل الطائرة فكّرتُ. مازالت ديوني كما هي. مازال قلبي منقبضًا حزينًا. مازال الغوريلا الذي بداخلي جريحًا.

لم تأتِ نسيمة، لتُودّعني. أحببتُ أن أُودّع ما كان مفترضًا أن يكون عجيزة. أنا على يقين أنني في الأيّام الأخيرة، بدأتُ أشعر أنها نَبَتَتْ.

- سبعة أشهر كاملة مرّت هناك، لم أُرَبّ شيئًا غير عجيزة نسيمة.

...نحن بصدد النزول بمطار تونس قرطاج.

عليّ أن أُغلقَ الدفتر الآن.

انتهى عام الجزائر

فهرس المحتويات

الجحيم الحميم 7

تونس 13 جويلية 2010 11

2009 15

5 أكتوبر 17

2 نوفمبر 48

1 ديسمبر 88

2010 139

1 جانفي 141

1 فيفري 176

1 مارس 199

1 افريل 244

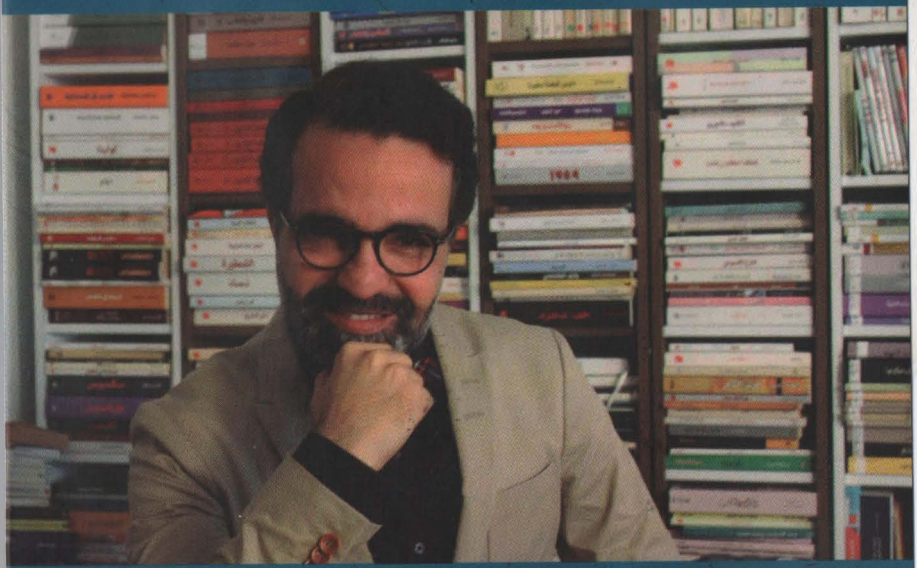

كمال رياحي: روائي وإعلامي. معد ومقدم برامج إذاعية وتلفزيونية، ومدرب ورشات كتابة تونسي، خريج الجامعة التونسية بشهادة الدراسات المعمقة في الأدب الحديث. صدر له العديد من الأعمال الأدبية والنقدية منها: رواية "المشرط" (حصلت على جائزة الكومار الذهبي الأدبيّة لعام ٢٠٠٦). رواية "الغوريلا" (٢٠١١)، عشيقات النذل (٢٠١٥)، "حركة السرد الروائي» (٢٠٠٥)، «نصر حامد أبو زيد / التفكير في وجه التكفير» ٢٠١٤. ترجمت أعماله للكثير من اللغات الأجنبية، أدار عدداً كبيراً من ورشات الكتابة الإبداعية والصحفية والنقدية في تونس وفي العالم العربي. وقد حصل على العديد من الجوائز الوطنية والأجنبية.

منشورات المتوسط